سورة النازعات

وهي اربعون وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه الكلمات الخمس يحتمل أن تكون صفات لشيء واحد، ويحتمل أن لا تكون كذلك: أما على الاحتمال الأول فقد ذكروا في الآية وجوهًا: **أحدها**: أنها بأسرها صفات الملائكة، فقوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ هم الملائكة الذين ينزعون نفوس بني آدم، فإذا نزعوا نفس الكفار نزعوها بشدة، وهو مأخوذ من قولهم نزع في القوس فأغرق، يقال: أغرق النازع في القوس، إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل، فتقدير الآية: والنازعات إغراقًا، والغرق والإغراق في اللغة بمعنى واحد، وقوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ النشط هو الجذب، يقال: نشطت الدلو أنشطها وأنشطتها نشطًا، نزعتها برفق، والمراد هي الملائكة التي تنشط روح المؤمن فتقبضها، وإنما خصصنا هذا بالمؤمن والأول بالكافر لما بين النزع والنشط من الفرق، فالنزع جذب بشدة، والنشط جذب برفق ولين، فالملائكة، تنشط أرواح المؤمنين كما تنشط الدلو من البئر، فالحاصل أن قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قَسَمٌ بملك الموت وأعوانه إلا أن الأول إشارة إلى كيفية قبض أرواح الكفار، والثاني إشارة إلى كيفية قبض أرواح المؤمنين. **أما قوله**: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ فمنهم من خصصه أيضًا بملائكة قبض الأرواح، ومنهم من حمله على سائر طوائف الملائكة، أما الوجه الأول: فنقل عن علي عليه السلام، وابن عباس ومسروق، أن الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلًّا رفيقًا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ ثم يتركونها حتى تستريح رويدًا، ثم يستخرجونها بعد ذلك برفق ولطافة كالذي يسبح في الماء، فإنه يتحرك برفق ولطافة لئلا يفرق، فكذا ههنا يرفقون في ذلك الاستخراج؛ لئلا يصل إليه ألم وشدة فذاك هو المراد من قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ وأما الذين حملوه على سائر طوائف الملائكة فقالوا: إن الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، فجُعل نزولهم من السماء كالسباحة، والعرب تقول للفرس الجواد، إنه السابح. **وأما قوله**: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ فمنهم من فسره بملائكة قبض الأرواح يسبقون بأرواح، الكفار إلى النار، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، ومنهم من فسره

بسائر طوائف الملائكة، ثم ذكروا في هذا السبق وجوهًا: **أحدها:** قال مجاهد وأبو روق: إن الملائكة سبقت ابن آدم بالإيمان والطاعة، ولا شك أن المسابقة في الخيرات درجة عظيمة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] **وثانيها:** قال الفراء والزجاج: إن الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء لأن الشياطين كانت تسترق السمع. **وثالثها:** ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى وصفهم فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] يعني قبل الإذن لا يتحركون ولا ينطقون تعظيمًا لجلال الله تعالى وخوفًا من هيبته، وههنا وصفهم بالسبق، يعني إذا جاءهم الأمر، فإنهم يتسارعون إلى امتثاله ويتبادرون إلى إظهار طاعته، فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾. **وأما قوله:** ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ فأجمعوا على أنهم هم الملائكة، قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل، وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام، يدبرون أمر الله تعالى في أهل الأرض، وهم المقسمات أمرًا، أما جبريل فوُكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فوُكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فوُكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، وقوم منهم موكلون بحفظ بني آدم، وقوم آخرون بكتابة أعمالهم، وقوم آخرون بالخسف والمسخ والرياح والسحاب والأمطار. **بقي على الآية سؤالان:**

السؤال الأول: لمَ قال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، ولم يقل: (أمورًا) فإنهم يدبرون أمورًا كثيرة لا أمرًا واحدًا؟ والجواب: أن المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع.

السؤال الثاني: قال تعالى: إن الأمر كله لله فكيف أثبت لهم ههنا تدبير الأمر؟ والجواب: لما كان ذلك الإتيان به كان الأمر كأنه له، فهذا تلخيص ما قاله المفسرون في هذا الباب، وعندي فيه وجه آخر: وهو أن الملائكة لها صفات سلبية وصفات إضافية، أما الصفات السلبية فهي أنها مبرأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة، والموت والهرم والسقم والتركيب من الأعضاء والأخلاط والأركان، بل هي جواهر روحانية مبرأة عن هذه الأحوال، فقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ إشارة إلى كونها منزوعة عن هذه الأحوال نزعًا كليًا من جميع الوجوه، وعلى هذا التفسير: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ هي ذوات النزع كاللابن والتامر، وأما قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ إشارة إلى أن خروجها عن هذه الأحوال ليس على سبيل التكليف والمشقة كما في حق البشر، بل هم بمقتضى ماهياتهم خرجوا عن هذه الأحوال وتنزهوا عن هذه الصفات، فهاتان الكلمتان إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية، وأما صفاتهم الإضافية فهي قسمان: **أحدهما:** شرح قوتهم العاقلة، أي كيف حالهم في معرفة مُلْك الله وملكوته والاطلاع على نور جلاله فوصفهم في هذا المقام بوصفين: **أحدهما:** قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ فهم يسبحون من أول فطرتهم في بحار جلال الله ثم لا منتهى لسباحتهم؛ لأنه لا منتهى لعظمة الله وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه، فهم أبدًا في تلك السباحة وثانيهما: قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ وهو إشارة إلى مراتب الملائكة في تلك السباحة، فإنه كما أن مراتب معارف البهائم بالنسبة إلى مراتب معارف البشر ناقصة، ومراتب

معارف البشر بالنسبة إلى مراتب معارف الملائكة ناقصة، فكذلك معارف بعض تلك الملائكة بالنسبة إلى مراتب معارف الباقين متفاوتة، وكما أن المخالفة بين نوع الفرس ونوع الإنسان بالماهية، لا بالعوارض فكذا المخالفة بين شخص كل واحد من الملائكة وبين شخص الآخر بالماهية فإذا كانت أشخاصها متفاوتة بالماهية لا بالعوارض كانت لا محالة متفاوتة في درجات المعرفة وفي مراتب التجلي، فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ فهاتان الكلمتان المراد منهما شرح أحوال قوتهم العاقلة.

وأما قوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ فهو إشارة إلى شرح حال قوتهم العاملة، وذلك لأن كل حال من أحوال العالم السفلي مفوض إلى تدبير واحد من الملائكة الذين هم عمار العالم العلوي وسكان بقاع السموات، ولما كان التدبير لا يتم إلا بعد العلم، لا جرم قَدَّم شرح القوة العاقلة التي لهم على شرح القوة العاملة التي لهم، فهذا الذي ذكرته احتمال ظاهر والله أعلم بمراده من كلامه.

واعلم أن أبا مسلم بن بحر الأصفهاني طعن في حمل هذه الكلمات على الملائكة، وقال: واحد النازعات نازعة وهو من لفظ الإناث، وقد نزه الله تعالى الملائكة عن التأنيث، وعاب قول الكفار حيث قال: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: ١٩].

واعلم أن هذا طعن لا يتوجه على تفسيرنا؛ لأن المراد الأشياء ذوات النزع، وهذا القدر لا يقتضي ما ذُكر من التأنيث.

الوجه الثاني في تأويل هذه الكلمات: أنها هي النجوم، وهو قول الحسن البصري، ووَصْف النجوم بالنازعات يحتمل وجوهًا: **أحدها:** كأنها تنزع من تحت الأرض فتنجذب إلى ما فوق الأرض، فإذا كانت منزوعة كانت ذوات نزع، فيصح أن يقال: إنها نازعة، على قياس اللابن والتامر. **وثانيها:** أن النازعات من قولهم: (نزع إليه) أي ذهب، نزوعًا، هكذا قاله الواحدي، فكأنها تطلع وتغرب بالنزع والسَّوق. **والثالث:** أن يكون ذلك من قولهم: نزعت الخيل، إذا جرت، فمعنى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ أي والجاريات على السير المقدر والحد المعين. وقوله: ﴿غَرۡقٗا﴾ يحتمل وجهين: **أحدهما:** أن يكون حالاً من النازعات، أي هذه الكواكب كالغرقى في ذلك النزع والإرادة وهو إشارة إلى كمال حالها في تلك الإرادة، فإن قيل: إذا لم تكن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة، فما معنى وصفها بذلك؟ قلنا: هذا يكون على سبيل التشبيه، كقوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] فإن الجمع بالواو والنون يكون للعقلاء، ثم إنه ذكّر في الكواكب على سبيل التشبيه. **والثاني:** أن يكون معنى غرقها غيبوبتها في أفق الغرب، فالنازعات إشارة إلى طلوعها وغرقًا إشارة إلى غروبها أي تنزع، ثم تغرق إغراقًا، وهذا الوجه ذكره قوم من المفسرين.

أما قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ فقال صاحب (الكشاف): معناه أنها تخرج من برج إلى برج، من قولك: (ثور ناشط) إذا خرج من بلد إلى بلد. وأقول: يرجع حاصل هذا الكلام إلى أن قوله:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ إشارة إلى حركتها اليومية ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ إشارة إلى انتقالها من برج إلى برج وهو حركتها المخصوصة بها في أفلاكها الخاصة، والعجب أن حركاتها اليومية قسرية، وحركتها من برج إلى برج ليست قسرية، بل ملائمة لذواتها، فلا جرم عَبَّر عن الأول بالنزع وعن الثاني بالنشط، فتأمل أيها المسكين في هذه الأسرار.

وأما قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ فقال الحسن وأبو عبيدة رحمهما الله: هي النجوم تسبح في الفلك؛ لأن مرورها في الجو كالسبح؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وأما قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ فقال الحسن وأبو عبيدة: هي النجوم يسبق بعضها بعضًا في السير بسبب كون بعضها أسرع حركة من البعض، أو بسبب رجوعها أو استقامتها.

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ ففيه وجهان: **أحدهما:** أن بسبب سيرها وحركتها يتميز بعض الأوقات عن بعض، فتظهر أوقات العبادات، على ما قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ [الروم: ١٧، ١٨] وقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: ٥] ولأن بسبب حركة الشمس تختلف الفصول الأربعة، ويختلف بسبب اختلافها أحوال الناس في المعاش، فلا جرم أضيفت إليها هذه التدبيرات. **والثاني:** أنه لما ثبت بالدليل أن كل جسم محدث ثبت أن الكواكب محدثة مفتقرة إلى موجد يوجدها، وإلى صانع يخلقها، ثم بعد هذا لو قَدَّرنا أن صانعها أودع فيها قوى مؤثرة في أحوال هذا العالم، فهذا يطعن في الدين ألبتة، وإن لم نقل بثبوت هذه القوى أيضًا، لكنا نقول: إن الله سبحانه وتعالى أجرى عادته بأن جعل كل واحد من أحوالها المخصوصة سببًا لحدوث حادث مخصوص في هذا العالم، كما جعل الأكل سببًا للشبع، والشرب سببًا للري، ومماسة النار سببًا للاحتراق، فالقول بهذا المذهب لا يضر الإسلام ألبتة بوجه من الوجوه، والله أعلم بحقيقة الحال.

الوجه الثالث في تفسير هذه الكلمات الخمسة: أنها هي الأرواح، وذلك لأن نفس الميت تنزع، يقال فلان في النزع، وفلان ينزع، إذا كان في سياق الموت، والأنفس نازعات عند السياق، ومعنى ﴿غَرۡقٗا﴾ أي نزعًا شديدًا أبلغ ما يكون وأشد من إغراق النازع في القوس، وكذلك تنشط لأن النشط معناه الخروج، ثم الأرواح البشرية الخالية عن العلائق الجسمانية المشتاقة إلى الاتصال العلوي بعد خروجها من ظلمة الأجساد -تذهب إلى عالم الملائكة، ومنازل القدس على أسرع الوجوه في رَوْح وريحان، فعبَّر عن ذهابها على هذه الحالة بالسباحة، ثم لا شك أن مراتب الأرواح في النفرة عن الدنيا ومحبة الاتصال بالعالم العلوي مختلفة، فكلما كانت أتم في هذه الأحوال كان سيرها إلى هناك أسبق، وكلما كانت أضعف كان سيرها إلى هناك أثقل، ولا شك أن الأرواح السابقة إلى هذه الأحوال أشرف فلا جرم وقع القَسَم بها، ثم إن هذه الأرواح الشريفة العالية لا يبعد أن يكون فيها ما يكون لقوتها وشرفها يظهر منها آثار في أحوال هذا العالم، فهي ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ أليس أن الإنسان

قد يرى أستاذه في المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها؟ أليس أن الابن قد يرى أباه في المنام فيهديه إلى كنز مدفون؟ أليس أن جالينوس قال: كنت مريضًا فعجزت عن علاج نفسي، فرأيت في المنام واحدًا أرشدني إلى كيفية العلاج؟ أليس أن الغزالي قال: إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها، ثم اتفق إنسان مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن، فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهامًا؟ ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة، وهذه المعاني وإن لم تكن منقولة عن المفسرين إلا أن اللفظ محتمل لها جدًّا.

الوجه الرابع في تفسير هذه الكلمات الخمس: أنها صفات خيل الغزاة فهي نازعات لأنها تنزع في أعنتها نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عِراب وهي ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ لأنها تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب، من قولهم: (ثور ناشط) إذا خرج من بلد إلى بلد، وهي سابحات لأنها تسبح في جريها، وهي سابقات لأنها تسبق إلى الغاية، وهي مدبرات لأمر الغلبة والظفر، وإسناد التدبير إليها مجاز لأنها من أسبابه.

الوجه الخامس وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله: أن هذه صفات الغزاة فالنازعات أيدي الغزاة يقال للرامي: (نزع في قوسه) ويقال: (أغرق في النزع) إذا استوفى مد القوس، والناشطات: السهام وهي خروجها عن أيدي الرماة ونفوذها، وكل شيء حللته فقد نشطته، ومنه نشاط الرجل وهو انبساطه وخفته، والسابحات في هذا الموضع الخيل وسَبْحها العَدْو، ويجوز أن يعني به الإبل أيضًا، والمدبرات مثل المعقبات، والمراد أنه يأتي في أدبار هذا الفعل الذي هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها - الأمرُ الذي هو النصر، ولفظ التأنيث إنما كان لأن هؤلاء جماعات، كما قيل: المدبرات، ويحتمل أن يكون المراد الآلة من القوس والأوهاق، على معنى المنزوع فيها والمنشوط بها.

الوجه السادس: أنه يمكن تفسير هذه الكلمات بالمراتب الواقعة في رجوع القلب من غير الله تعالى إلى الله ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ هي الأرواح التي تنزع إلى اعتلاق العروة الوثقى، أو المنزوعة عن محبة غير الله تعالى ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ هي أنها بعد الرجوع عن الجسمانيات تأخذ في المجاهدة، والتخلق بأخلاق الله سبحانه وتعالى بنشاط تام، وقوة قوية ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ ثم إنها بعد المجاهدة تسرح في أمر الملكوت فتقطع في تلك البحار فتسبح فيها ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ إشارة إلى تفاوت الأرواح في درجات سيرها إلى الله تعالى ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ إشارة إلى أن آخر مراتب البشرية متصلة بأول درجات الملكية، فلما انتهت الأرواح البشرية إلى أقصى غاياتها وهي مرتبة السبق، اتصلت بعالم الملائكة وهو المراد من قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ فالأربعة الأُول هي المراد من قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور: ٣٥] والخامسة هي النار في قوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

واعلم أن الوجوه المنقولة عن المفسرين غير منقولة عن رسول الله ﷺ نصًا، حتى لا يمكن الزيادة عليها، بل إنما ذكروها لكون اللفظ محتملاً لها، فإذا كان احتمال اللفظ لما ذكرناه ليس دون احتماله للوجوه التي ذكروها لم يكن ما ذكروه أَوْلى مما ذكرناه، إلا أنه لا بد ههنا من دقيقة، وهو أن اللفظ محتمل للكل، فإن وجدنا بين هذه المعاني مفهومًا واحدًا مشتركًا حملنا اللفظ على ذلك المشترك: وحينئذٍ يندرج تحته جميع هذه الوجوه. أما إذا لم يكن بين هذه المفهومات قدر مشترك تَعَذر حمل اللفظ على الكل؛ لأن اللفظ المشترك لا يجوز استعماله لإفادة مفهوميه معًا، فحينئذٍ لا نقول: (مراد الله تعالى هذا) بل نقول: يحتمل أن يكون هذا هو المراد، أما الجزم فلا سبيل إليه ههنا.

الاحتمال الثاني: وهو أن لا تكون الألفاظ الخمسة صفات لشيء واحد، بل لأشياء مختلفة، ففيه أيضًا وجوه: **الأول:** النازعات غرقًا، هي: القِسي، والناشطات نشطًا هي الأوهاق، والسابحات: السفن، والسابقات: الخيل، والمدبرات: الملائكة، رواه واصل بن السائب عن عطاء. **الثاني:** نُقل عن مجاهد في النازعات، والناشطات، والسابحات أنها الموت، وفي السابقات، والمدبرات أنها الملائكة، وإضافة النزع، والنشط، والسبح إلى الموت مجاز بمعنى أنها حصلت عند حصوله. **الثالث:** قال قتادة: الجميع هي النجوم إلا المدبرات، فإنها هي الملائكة.

المسألة الثانية: ذكر (فالسابقات) بالفاء، والتي قبلها بالواو، وفي علته وجهان: **الأول:** قال صاحب (الكشاف): إن هذه مسببة عن التي قبلها، كأنه قيل: (واللاتي سبحن، فسبقن) كما تقول: (قام فذهب) أوجب الفاء أن القيام كان سببًا للذهاب، ولو قلت: (قام وذهب) لم تجعل القيام سببًا للذهاب، قال الواحدي: قول صاحب (النظم) غير مطرد في قوله: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير. وأقول: يمكن الجواب عن اعتراض الواحدي رحمه الله من وجهين: **الأول:** لا يبعد أن يقال: إنها لما أُمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أُمرت بتدبيرها وإصلاحها، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض، كقولك: قام زيد، فذهب، فضرب عمرًا.

الثاني: لا يبعد أن يقال: إنهم لما كانوا سابقين في أداء الطاعات متسارعين إليها ظهرت أمانتهم، فلهذا السبب فوض الله إليهم تدبير بعض العالم.

الوجه الثاني: أن الملائكة قسمان/ الرؤساء والتلامذة، والدليل عليه أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] فقلنا في التوفيق بين الآيتين: إن ملك الموت هو الرأس، والرئيس وسائر الملائكة هم التلامذة، إذا عرفت هذا فتقول: النازعات والناشطات والسابحات محمولة على التلامذة الذين هم يباشرون العمل بأنفسهم، ثم قوله: تعالى: ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ ... ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ إشارة إلى الرؤساء الذين هم السابقون، في الدرجة والشرف، وهم المدبرون لتلك الأحوال والأعمال.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: جواب القسم المتقدم محذوف أو مذكور، فيه وجهان: **الأول:**أنه محذوف، ثم على هذا الوجه في الآية احتمالات: **الأول:**قال الفراء: التقدير: لتبعثُن، والدليل عليه ما حكى الله تعالى عنهم، أنهم قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١١]أي أنُبعث إذا صرنا عظامًا نخرة؟! **الثاني:**قال الأخفش والزجاج: لننفخنَ في الصور نفختين ودل على هذا المحذوف ذكر الراجفة والرادفة وهما النفختان. **الثالث:**قال الكسائي: الجواب المضمر هو أن القيامة واقعة، وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَٱلذَّـٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥]وقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا﴾ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ١-٧]فكذلك ههنا فإن القرآن كالسورة الواحدة.

القول الثاني:أن الجواب مذكور وعلى هذا القول احتمالات: **الأول:**المقسم عليه هو قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨، ٩]والتقدير: والنازعات غرقًا أن يوم ترجف الراجفة تحصل قلوب واجفة وأبصارها خاشعة. **الثاني:**جواب القسم هو قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥]فإن هل ههنا بمعنى قد، كما في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]أي قد أتاك حديث الغاشية الثالث: جواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦].

المسألة الثانية: ذكروا في ناصب (يوم) بوجهين: **أحدهما:**أنه منصوب بالجواب المضمر والتقدير: لتبعثُن يوم ترجف الراجفة. فإن قيل: كيف يصح هذا مع أنهم لا يُبعثون عند النفخة الأولى والراجفة هي النفخة الأولى؟ قلنا: المعنى لتبعثُن في الوقت الواسع الذي يحصل فيه النفختان، ولا شك أنهم يُبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الأخرى، ويدل على ما قلناه أن قوله: ﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ جعل حالاً عن الراجفة. **والثاني:**أن ينصب (يوم ترجف) بما دل عليه ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي يوم ترجف وجفت القلوب.

المسألة الثالثة: الرجفة في اللغة تحتمل وجهين: **أحدهما:**الحركة لقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]. **الثاني:**الهدة المنكرة والصوت الهائل، من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفًا ورجيفًا، وذلك تردد أصواته المنكرة وهدهدته في السحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١]فعلى هذا الوجه الراجفةُ صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد وأما الرادفة فكل شيء جاء بعد شيء آخر، يقال: ردفه، أي جاء بعده. وأما القلوب الواجفة فهي المضطربة الخائفة، يقال: وجف قلبه يجف وجافًا، إذا اضطرب، ومنه إيجاف الدابة، وحملها على السير الشديد، وللمفسرين عبارات كثيرة في تفسير الواجفة ومعناها واحد، قالوا: خائفة وجلة زائلة

عن أماكنها قلقة مستوفزة مرتكضة شديدة الاضطراب غير ساكنة، أبصار أهلها خاشعة، وهو كقوله: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

إذا عرفت هذا فنقول، اتفق جمهور المفسرين على أن هذه الأمور أحوال يوم القيامة، وزعم أبو مسلم الأصفهاني أنه ليس كذلك، ونحن نذكر تفاسير المفسرين ثم نشرح قول أبي مسلم.

أما القول الأول: - وهو المشهور بين الجمهور - أن هذه الأحوال أحوال يوم القيامة، فهؤلاء ذكروا وجوهًا: **أحدها:** أن الراجفة هي النفخة الأولى، وسميت به إما لأن الدنيا تتزلزل وتضطرب عندها، وإما لأن صوت تلك النفخة هي الراجفة، كما بينا القول فيه، والرادفة رجفة أخرى تتبع الأولى فتضطرب الأرض لإحياء الموتى كما اضطربت في الأولى لموت الأحياء، على ما ذكره تعالى في سورة الزمر، ثم يروى عن الرسول ﷺ أن بين النفختين أربعين عامًا، ويروى في هذه الأربعين يمطر الله الأرض ويصير ذلك الماء عليها كالنطف، وأن ذلك كالسبب للإحياء، وهذا مما لا حاجة إليه في الإعادة، ولله أن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. **وثانيها:** الراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي قيام الساعة، من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] أي القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادًا لها، فهي رادفة لهم لاقترابها. **وثالثها:** الراجفة: الأرض والجبال، من قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤] والرادفة: السماء والكواكب لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك. **ورابعها:** الراجفة هي الأرض تتحرك وتتزلزل، والرادفة زلزلة ثانية تتبع الأولى حتى تنقطع الأرض وتفنى.

القول الثاني: - وهو قول أبي مسلم - أن هذه الأحوال ليست أحوال يوم القيامة، وذلك لأنا نقلنا عنه أنه فسر النازعات بنزع القوس والناشطات بخروج السهم، والسابحات بعَدْو الفرس، والسابقات بسبقها، والمدبرات بالأمور التي تحصل، أدبار ذلك الرمي والعَدْو، ثم بنى على ذلك فقال: الراجفة هي خيل المشركين وكذلك الرادفة، ويراد بذلك طائفتان من المشركين غزوا رسول الله ﷺ فسبقت إحداهما الأخرى، والقلوب الواجفة هي القلقة، والأبصار الخاشعة هي أبصار المنافقين، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠] كأنه قيل: لما جاء خيل العدو يرجف، وردفتها أختها اضطرب قلوب المنافقين خوفًا، وخشعت أبصارهم جبنًا وضعفًا، ثم قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠] أي نرجع إلى الدنيا حتى نتحمل هذا الخوف لأجلها وقالوا أيضًا: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢] فأول هذا الكلام حكاية لحال من غزا رسول الله ﷺ من المشركين، وأوسطه حكاية لحال المنافقين، وآخره حكاية لكلام المنافقين في إنكار الحشر، ثم إنه سبحانه وتعالى أجاب عن كلامهم بقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] وهذا كلام أبي مسلم، واللفظ محتمل له وإن كان على خلاف قول الجمهور.

قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ اعلم أنه تعالى لم يقل: (القلوب يومئذ

واجفة) فإنه ثبت بالدليل أن أهل الإيمان لا يخافون بل المراد منه قلوب الكفار، ومما يؤكد ذلك أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠] وهذا كلام الكفار لا كلام المؤمنين، وقوله: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ لأن المعلوم من حال المضطرب الخائف أن يكون نظره نظر خاشع ذليل خاضع يترقب ما ينزل به من الأمر العظيم.

وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: كيف جاز الابتداء بالنكرة؟ الجواب: قلوب مرفوعة بالابتداء وواجفة صفتها، وأبصارها خاشعة خبرها، فهو كقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١].

السؤال الثاني: كيف صحت إضافة الأبصار إلى القلوب؟ الجواب: معناه أبصار أصحابها، بدليل قوله: (يقولون) ثم اعلم أنه تعالى حكى ههنا عن منكري البعث أقوالاً ثلاثة:

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾

أولها: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ يقال: رجع فلان في حافرته، أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها، أي أثَّر فيها بمشيه فيها، جعل أثر قدميه حفرًا فهي في الحقيقة محفورة إلا أنها سميت حافرة، كما قيل: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] و﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي منسوبة إلى الحفر والرضا والدفق، أو كقولهم: نهارك صائم، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: (رجع إلى حافرته) أي إلى طريقته وفي الحديث: «**إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لاَ يُتْرَكُ عَلَى حَالِهِ حَتَّى يُرَدَّ عَلَى حَافِرَتِهِ**»(١) أي على أول تأسيسه وحالته الأولى. وقرأ أبو حيوة: (في الحفرة) والحفرة بمعنى المحفورة، يقال: حفرت أسنانه، فحفرت حفرًا، وهي حفرة، هذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفور، إذا عرفت هذا ظهر أن معنى الآية: أنُرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنا؟!

وثانيها: قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ حمزة وعاصم: (ناخرة) بألف، وقرأ الباقون: (نخرة) بغير ألف، واختلفت الرواية عن الكسائي، فقيل: إنه كان لا يبالي كيف قرأها، وقيل: إنه كان يقرؤها بغير ألف، ثم رجع إلى الألف، واعلم أن أبا عبيدة اختار نخرة، وقال: نظرنا في الآثار التي فيها ذكر العظام التي قد نخرت، فوجدناها كلها العظام النخرة، ولم نسمع في شيء منها الناخرة. وأما من سواه، فقد اتفقوا على أن الناخرة لغة صحيحة، ثم اختلف هؤلاء على قولين: الأول: أن الناخرة والنخرة بمعنى واحد، قال الأخفش: هما جميعًا لغتان أيهما قرأت فحسن. وقال الفراء: الناخر والنخر سواء في المعنى، بمنزلة الطامع والطمِع، والباخل والبخِل، وفي كتاب

---

(١) لم أجده إلا في كتب التفسير بغير إسناد.

(الخليل): نخرت الخشبة، إذا بليت فاسترخت حتى تتفتت إذا مُست، وكذلك العظم الناخر. ثم هؤلاء الذين قالوا: هما لغتان والمعنى واحد اختلفوا، فقال الزجاج والفراء: الناخرة أشبه الوجهين بالآية لأنها تشبه أواخر سائر الآي نحو الحافرة والساهرة. وقال آخرون: الناخرة والنخر كالطامع والطمع، واللابث واللِبِث وفعِل أبلغ من فاعل. **القول الثاني:** أن النخرة غير والناخرة غير، أما النخرة فهو من نخر العظم ينخر فهو نخِر مثل عفن يعفن فهو عفن، وذلك إذا بلي وصار بحيث لو لمسته لتفتت، وأما الناخرة فهي العظام الفارغة التي يحصل من هبوب الريح فيها صوت كالنخير، وعلى هذا الناخرة من النخير بمعنى الصوت، كنخير النائم والمخنوق لا من النخر الذي هو البلى.

المسألة الثانية: (إذًا) منصوب بمحذوف تقدير إذا كنا عظامًا نُرد ونُبعث؟!

المسألة الثالثة: اعلم أن حاصل هذه الشبهة أن الذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله: (أنا) هو هذا الجسم المبني بهذه البنية المخصوصة، فإذا مات الإنسان فقد بطل مزاجه وفسد تركيبه فتمتنع إعادته لوجوه: أحدها: أنه لا يكون الإنسان العائد هو الإنسان الأول إلا إذا دخل التركيب الأول في الوجود مرة أخرى، وذلك قول بإعادة عين ما عدم أولاً، وهذا محال لأن الذي عدم لم يبق له عين ولا ذات ولا خصوصية، فإذا دخل شيء آخر في الوجود استحال أن يقال بأن العائد هو عين ما فني أولاً. **وثانيها:** أن تلك الأجزاء تصير ترابًا وتتفرق وتختلط بأجزاء كل الأرض وكل المياه وكل الهواء، فتميُّز تلك الأجزاء بأعيانها عن كل هذه الأشياء محال. **وثالثها:** أن الأجزاء الترابية باردة يابسة قشفة، فتولُّد الإنسان الذي لا بد وأن يكون حارًّا رطبًا في مزاجه عنها محال.

هذا تمام تقرير كلام هؤلاء الذين احتجوا على إنكار البعث بقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ والجواب عن هذه الشبهة من وجوه: **أولها وهو الأقوى:** لا نسلِّم أن المشار إليه لكل أحد بقوله: (أنا) هو هذا الهيكل، ثم إن الذي يدل على فساده وجهان: **الأول:** أن أجزاء هذا الهيكل في الزوبان والتبدل، والذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله (أنا) ليس في التبدل والمتبدل مغاير لما هو غير متبدل. **والثاني:** أن الإنسان قد يعرف أنه هو حال كونه غافلاً عن أعضائه الظاهرة والباطنة، والمشعور به مغاير لما هو غير مشعور به، وإلا لاجتمع النفي والإثبات على الشيء الواحد وهو محال، فثبت أن المشار إليه لكل أحد بقوله: (أنا) ليس هو هذا الهيكل، ثم ههنا ثلاثة احتمالات: أحدها: أن يكون ذلك الشيء موجودًا قائمًا بنفسه ليس بجسم ولا بجسماني، على ما هو مذهب طائفة عظيمة من الفلاسفة ومن المسلمين. **وثانيها:** أن يكون جسمًا مخالفًا بالماهية لهذه الأجسام القابلة للانحلال والفساد سارية فيها سريان النار في الفحم وسريان الدهن في السمسم وسريان ماء الورد في جِرم الورد، فإذا فسد هذا الهيكل تقلصت تلك الأجزاء وبقيت حية مدركة عاقلة، إما في الشقاوة أو في السعادة. **وثالثها:** أن يقال: إنه جسم مساوٍ لهذه الأجسام في الماهية إلا أن الله تعالى خصها بالبقاء والاستمرار من أول حال تكوُّن شخص في الوجود إلى

آخر عمره، وأما سائر الأجزاء المتبدلة تارة بالزيادة وأخرى بالنقصان، فهي غير داخلة في المشار إليه بقوله (أنا) فعند الموت تنفصل تلك الأجزاء، وتبقى حية، إما في السعادة أو في الشقاوة.

وإذا ظهرت هذه الاحتمالات ثبت أنه لا يلزم من فساد البدن وتفرق أجزائه فساد ما هو الإنسان حقيقة، وهذا مقام حسن متين تنقطع به جميع شبهات منكري البعث. وعلى هذا التقدير لا يكون لصيرورة العظام نخرة بالية متفرقة تأثير في دفع الحشر والنشر ألبتة، سلَّمنا علَى سبيل المسامحة أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، فلمَ قلتم: إن الإعادة ممتنعة؟

قوله أولاً: المعدوم لا يعاد. قلنا: أليس أن حال عدمه لم يمتنع عندكم صحة الحكم عليه بأنه يمتنع عوده، فلمَ لا يجوز أن لا يمتنع على قولنا أيضًا صحة الحكم عليه بالعود، **قوله ثانيًا:** الأجزاء القليلة مختلطة بأجزاء العناصر الأربعة. قلنا: لكن ثبت أن خالق العالم عالم بجميع الجزئيات، وقادر على كل الممكنات، فيصح منه جمعها بأعيانها. وإعادة الحياة إليها. **قوله ثالثًا:** الأجسام القشفة اليابسة لا تقبل الحياة. قلنا: نرى السمندل يعيش في النار، والنعامة تبتلع الحديدة المحماة، والحيات الكبار العظام متولدة في الثلوج، فبطل الاعتماد على الاستقراء، والله الهادي إلى الصدق والصواب.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾

النوع الثالث من الكلمات التي حكاها الله تعالى عن منكري البعث: ﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ والمعنى كرة منسوبة إلى الخسران، كقولك تجارة رابحة، أو خاسر أصحابها، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذًا خاسرون لتكذيبنا. وهذا منهم استهزاء.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه الكلمات قال: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الفاء في قوله: ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ متعلق بمحذوف معناه: لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة، يعني لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله فإنها سهلة هينة في قدرته.

المسألة الثانية: يقال: (زجر البعير) إذا صاح عليه، والمراد من هذه الصيحة النفخة الثانية وهي صيحة إسرافيل، قال المفسرون: يحييهم الله في بطون الأرض فيسمعونها فيقومون. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥].

المسألة الثالثة: الساهرة: الأرض البيضاء المستوية، سُميت بذلك لوجهين: **الأول:** أن سالكها لا ينام خوفًا منها. **الثاني:** أن السراب يجري فيها، من قولهم: (عين ساهرة) جارية الماء، وعندي فيه وجه ثالث: وهي أن الأرض إنما تسمى ساهرة لأن من شدة الخوف فيها يطير النوم عن الإنسان، فتلك الأرض التي يجتمع الكفار فيها في موقف القيامة يكونون فيها في أشد

الخوف، فسميت تلك الأرض ساهرة لهذا السبب، ثم اختلفوا من وجه آخر فقال بعضهم: هي أرض الدنيا. وقال آخرون: هي أرض الآخرة لأنهم عند الزجرة والصيحة يُنقلون أفواجًا إلى أرض الآخرة. ولعل هذا الوجه أقرب.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين: **الأول**: أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا في ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء في قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢] وكان ذلك يشق على محمد ﷺ فذكر قصة موسى عليه السلام، وبيَّن أنه تحمَّل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ **الثاني**: أن فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعًا وأشد شوكة، فلما تمرد على موسى أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فكذلك هؤلاء المشركون في تمردهم عليك إن أصروا أخذهم الله وجعلهم نكالاً.

المسألة الثانية: قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يحتمل أن يكون معناه: أليس قد ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ هذا إن كان قد أتاه ذلك قبل هذا الكلام، أما إن لم يكن قد أتاه فقد يجوز أن يقال: هل أتاك كذا، أم أنا أخبرك به؟ فإن فيه عبرة لمن يخشى.

المسألة الثالثة: الوادي المقدس: المبارك المطهر، وفي قوله: ﴿طُوًى﴾ وجوه: **أحدها**: أنه اسم وادي بالشام وهو عند الطور الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١، ٢] وقوله: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] **والثاني**: أنه بمعنى (يا رجل) بالعبرانية، فكأنه قال: (يا رجل اذهب إلى فرعون) وهو قول ابن عباس. **والثالث**: أن يكون قوله: ﴿طُوًى﴾ أي ناداه ﴿طُوًى﴾ من الليلة ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ لأنك تقول: جئتك بعد طوى، أي بعد ساعة من الليل. **والرابع**: أن يكون المعنى: بالوادي المقدس الذي طوى، أي بورك فيه مرتين.

المسألة الرابعة: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: (طُوَى) بضم الطاء غير منون، وقرأ الباقون بضم الطاء منونًا، وروي عن أبي عمرو: (طِوى) بكسر الطاء، و(طَوَى) مثل ثنى، وهما اسمان للشيء المثنى، والطي بمعنى الثني، أي ثنيت في البركة والتقديس، قال الفراء: (طُوًى) وادٍ بين المدينة ومصر، فمن صرفه قال: هو ذكَر سمينا به ذكَرًا، ومن لم يصرفه جعله معدولاً عن جهته كعمر وزفر. ثم قال: والصرف أحب إليَّ إذ لم أجد في المعدول نظيرًا، أي لم أجد اسمًا من الواو والياء عُدل عن فاعلة إلى فُعَل غير ﴿طُوًى﴾.

المسألة الخامسة: تقدير الآية: إذ ناداه ربه وقال: اذهب إلى فرعون. وفي قراءة عبد الله:

(أن اذهب) لأن في النداء معنى القول. وأما أن ذلك النداء كان بإسماع الكلام القديم، أو بإسماع الحرف والصوت، وإن كان على هذا الوجه فكيف عرف موسى أنه كلام الله؟ فكل ذلك قد تقدم في سورة طه.

المسألة السادسة: أن سائر الآيات تدل على أنه تعالى في أول ما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة، كقوله في سورة طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ١١-٢٤] فدل ذلك على أن قوله ههنا: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ من جملة ما ناداه به ربه، لا أنه كل ما ناداه به، وأيضًا ليس الغرض أنه عليه السلام كان مبعوثًا إلى فرعون فقط، بل إلى كل من كان في ذلك الطرف، إلا أنه خصه بالذكر لأن دعوته جارية مجرى دعوة كل ذلك القوم.

المسألة السابعة: الطغيان مجاوزة الحد، ثم إنه تعالى لم يبين أنه تعدى في أي شيء، فلهذا قال بعض المفسرين: معناه أنه تكبر على الله وكفر به. وقال آخرون: إنه طغى على بني إسرائيل. والأَوْلى عندي الجمع بين الأمرين، فالمعنى أنه طغى على الخالق بأن كفر به، وطغى على الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم، وكما أن كمال العبودية ليس إلا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلق، فكذا كمال الطغيان ليس إلا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلق.

واعلم أنه تعالى لما بعثه إلى فرعون، لقنه كلامين ليخاطبه بهما:

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾

فالأول: قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: يقال: هل لك في كذا، وهل لك إلى كذا؟ كما تقول: هل ترغب فيه، وهل ترغب إليه؟ قال الواحدي: المبتدأ محذوف في اللفظ مراد في المعنى، والتقدير: هل لك إلى تزكى حاجة أو إربة؟ قال الشاعر:

فَهَلْ لَكُمْ فِيهَا إِلَيَّ فَإِنَّنِي بَصِيرٌ بِمَا أَعْيَا النِّطَاسِيَّ حِذْيَمَا(١)

ويحتمل أن يكون التقدير: هل لك سبيل إلى أن تزكى؟

المسألة الثانية: الزكي: الطاهر من العيوب كلها، قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه إليه؛ لأن المراد هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكيًا عن كل ما لا ينبغي؟ وذلك بجمع كل ما يتصل بالتوحيد والشرائع.

المسألة الثالثة: فيه قراءتان: التشديد: على إدغام تاء التفعل في الزاي لتقاربهما، والتخفيف.

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر أوس بن حجر، وقد تقدمت ترجمته.

المسألة الرابعة: المعتزلة تمسكوا به في إبطال كون الله تعالى خالقًا لفعل العبد بهذه الآية، فإن هذا استفهام على سبيل التقرير، أي لك سبيل إلى أن تزكى، ولو كان ذلك بفعل الله تعالى لانقلب الكلام على موسى. والجواب عن أمثاله تقدم.

المسألة الخامسة: أنه لما قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[طه: ٤٤] فكأنه تعالى رتب لهما ذلك الكلام اللين الرقيق، وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوة إلى الله من اللين والرفق وترك الغلظة، ولهذا قال لمحمدﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩] ويدل على أن الذين يخاشنون الناس ويبالغون في التعصب - كأنهم على ضد ما أمر الله به أنبياءه ورسله.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: القائلون بأن معرفة الله لا تستفاد إلا من الهادي، تمسكوا بهذه الآية، وقالوا: إنها صريحة في أنه يهديه إلى معرفة الله. ثم قالوا: ومما يدل على أن هذا هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل؛ أمران: **الأول**: أن قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ يتناول جميع الأمور التي لا بد للمبعوث إليه منها، فيدخل فيه هذه الهداية، فلما أعاده بعد ذلك علم أنه هو المقصود الأعظم من البعثة. **والثاني**: أن موسى ختم كلامه عليه، وذلك ينبه أيضًا على أنه أشرف المقاصد من البعثة. والجواب: أنا لا نمنع أن يكون للتنبيه والإشارة معونة في الكشف عن الحق، إنما النزاع في أنكم تقولون: يستحيل حصوله إلا من المعلم. ونحن لا نحل ذلك.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن معرفة الله مقدمة على طاعته؛ لأنه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها ومفرعة عليها، ونظيره قوله تعالى في أول النحل: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[النحل: ٢] وفي طه: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾[طه: ١٤].

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨] أي العلماء به، ودلت الآية على أن الخشية ملاك الخيرات؛ لأن من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر، ومنه قوله عليه السلام: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أدلج بلغ المَنْزِلَ»(١).

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٦٣٣) حديث رقم (٢٤٥٠) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٣٤٣) حديث رقم (٧٨٥١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. والبغوي في (شرح السنة) (٧/ ٢٩٣) والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٥١٢) حديث رقم (٨٨١) وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٤٢٥) حديث رقم (١٤٦٠) جميعًا من طريق هاشم بن القاسم عن أبي عقيل هو الثقفي عن يزيد بن سنان سمعت بكير بن فيروز قال: سمعت أبا هريرة قال: قال رسول اللهﷺ . . . فذكره وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (١٣٣٥) وقال: صحيح.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَنهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الفاء في ﴿فَأَرَنهُ﴾ معطوف على محذوف معلوم، يعني: (فذهب فأراه) كقوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾[البقرة: ٦٠] أي فضرب فانفجرت.

المسألة الثانية: اختلفوا في الآية الكبرى على ثلاثة أقوال: **الأول:** قال مقاتل والكلبي: هي اليد، لقوله في النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[النمل: ١٢] آية أخرى ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾[طه: ٢٣] **القول الثاني:** قال عطاء: هي العصا؛ لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونه إلى لون آخر، وهذا المعنى كان حاصلاً في العصا؛ لأنها لما انقلبت حية فلا بد وأن يكون قد تغير اللون الأول، فإذًا كل ما في اليد فهو حاصل في العصا، ثم حصل في العصا أمور أخرى أزيد من ذلك، منها حصول الحياة في الجِرم الجمادي، ومنها تزايد أجزائه وأجسامه، ومنها حصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة، ومنها أنها كانت ابتلعت أشياء كثيرة وكأنها فنيت، ومنها زوال الحياة والقدرة عنها، وفناء تلك الأجزاء التي حصل عظمها، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين بهما صارت العصا حية، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزًا مستقلاً في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا. **والقول الثالث في هذه المسألة:** قول مجاهد: وهو أن المراد من الآية الكبرى مجموع اليد والعصا، وذلك لأن سائر الآيات دلت على أن أول ما أظهر موسى عليه السلام لفرعون هو العصا، ثم أتبعه باليد، فوجب أن يكون المراد من الآية الكبرى مجموعهما.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾

أحدها: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى قوله: ﴿فَكَذَّبَ﴾ أنه كَذَّب بدلالة ذلك المعجز على صدقه. واعلم أن القدح في دلالة المعجزة على الصدق إما لاعتقاد أنه يمكن معارضته، أو لأنه وإن امتنعت معارضته لكنه ليس فعلاً لله بل لغيره، إما فعل جني أو فعل مَلَك، أو إن كان فعلاً لله تعالى لكنه ما فعله لغرض التصديق، أو إن كان فعله لغرض التصديق لكنه لا يلزم صدق المدعي، فإنه لا يقبح من الله شيء ألبتة، فهذه مجامع الطعن في دلالة المعجز على الصدق، وما بعد الآية يدل على أن فرعون إنما منع من دلالته عن الصدق لاعتقاده أنه يمكن معارضته، بدليل قوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾[النازعات: ٢٣] وهو كقوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[الشعراء: ٥٣].

المسألة الثانية: في الآية سؤال وهو أن كل أحد يعلم أن كل من كَذَّب الله فقد عصى، فما

الفائدة في قوله: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ ؟ والجواب: كذب بالقلب واللسان، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر.

المسألة الثالثة: هذا الذي وصفه الله تعالى به من التكذيب والمعصية مغاير لما كان حاصلاً قبل ذلك؛ لأن تكذيبه لموسى عليه السلام وقد دعاه وأظهر هذه المعجزة - يوفى على ما تقدم من التكذيب ومعصيته بترك القبول منه، والحال هذه مخالفة لمعصيته من قبل ذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

وثانيها: قوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ وفيه وجوه: **أحدها**: أنه لما رأى الثعبان أدبر مرعوبًا يسعى يسرع في مشيه، قال الحسن: كان رجلاً طياشًا خفيفًا. **وثانيها**: تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته. **وثالثها**: أن يكون المعنى. ثم أقبل يسعى، كما يقال: فلان أقبل يفعل كذا، بمعنى أنشأ يفعل، فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال.

ثالثها: قوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فحشر فجمع السحرة، كقوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣] فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه، أو أمر مناديًا فنادى في الناس بذلك، وقيل: قام فيهم خطيبًا فقال تلك الكلمة، وعن ابن عباس: كلمته الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] والآخرة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ .

واعلم أنا بينا في سورة (طه) أنه لا يجوز أن يعتقد الإنسان في نفسه كونه خالقًا للسموات والأرض والجبال والنبات والحيوان والإنسان، فإن العلم بفساد ذلك ضروري، فمن تشكك فيه كان مجنونًا، ولو كان مجنونًا لما جاز من الله بعثة الأنبياء والرسل إليه، بل الرجل كان دهريًا منكرًا للصانع والحشر والنشر، وكان يقول: ليس لأحد عليكم أمر ولا نهي إلا لي، فأنا ربكم بمعنى مربيكم والمحسن إليكم، وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر ونهي، أو يبعث إليكم رسولاً. قال القاضي: وقد كان الأليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية، أن لا يقول هذا القول؛ لأن عند ظهور الذلة والعجز، كيف يليق أن يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؟ فدلت هذه الآية على أنه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنه أفعاله وأقواله، أتبعه بما عامله به، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: ذكروا في نصب (نكال) وجهين: **الأول**: قال الزجاج: إنه مصدر مؤكد لأن معنى أخذه الله: نكل الله به، نكال الآخرة والأولى؛ لأن أخذه ونكله متقاربان، وهو كما يقال: (أَدَعُه تركًا شديدًا) لأن أدعه وأتركه سواء، ونظيره قوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، **الثاني**: قال الفراء: يريد أخذه الله أخذًا نكالاً للآخرة والأولى، والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في هذه الآية وجوهًا: أحدها: أن الآخرة والأولى صفة لكلمتي فرعون: إحداهما قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] والأخرى: قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] قالوا: وكان بينهما أربعون سنة. وهذا قول مجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل، ورواية عطاء والكلبي عن ابن عباس، والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى في الحال، بل أمهله أربعين سنة، فلما ذكر الثانية أُخذ بهما، وهذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل. **الثاني**: وهو قول الحسن وقتادة: ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي عذبه في الآخرة، وأغرقه في الدنيا. **الثالث**: الآخرة هي قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ والأولى هي تكذيبه موسى حين أراه الآية، قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٠-٢٤] فذكر المعصيتين، ثم قال: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ فظهر أن المراد أنه عاتبه على هذين الأمرين.

المسألة الثالثة: قال الليث: (النكال) اسم لمن جُعل نكالاً لغيره، وهو الذي إذا رآه أو بلغه خاف أن يعمل عمله، وأصل الكلمة من الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، وقيل للقيد نكل لأنه يمنع، فالنكال من العقوبة هو أعظم حتى يمتنع من سمع به عن ارتكاب مثل ذلك الذنب الذي وقع التنكيل به، وهو في العرف يقع على ما يفتضح به صاحبه ويعتبر به غيره. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨﴾

ثم إنه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ والمعنى أن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون، وما أحله الله بفرعون من الخزي، ورزق موسى من العلو والنصر -عبرة لمن يخشى وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى والتكذيب لأنبيائه خوفًا من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلمًا بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله، فاعتبِروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه، أي اعلموا أنكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب للعقاب، شاركتموهم في حلول العقاب بكم.

ثم اعلم أنه تعالى لما ختم هذه القصة رجع إلى مخاطبة منكري البعث فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في المقصود من هذا الاستدلال وجهان: الأول: أنه استدلال على منكري البعث فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ فنبههم على أمر يُعلم بالمشاهدة. وذلك لأن خلقة الإنسان على صغره وضعفه، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها - يسير، فبيَّن تعالى أن خلق السماء أعظم، وإذا كان كذلك فخلقهم على وجه الإعادة أَوْلى أن يكون مقدورًا لله تعالى، فكيف ينكرون ذلك؟ ونظيره قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ

﴿مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١] وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] والمعنى أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء، أي عندكم وفي تقديركم، فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد. **والثاني**: أن المقصود من هذا الاستدلال بيان كونهم مخلوقين. وهذا القول ضعيف لوجهين أحدهما: أن من أنكر كون الإنسان مخلوقًا فبأن ينكر (ه) في السماء كان أَوْلى. **وثانيهما**: أن أول السورة كان في بيان مسألة الحشر والنشر، فحَمْل هذا الكلام عليه أَوْلى.

المسألة الثانية: قال الكسائي والفراء والزجاج: هذا الكلام تم عند قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ابتداء كلام آخر. وعند أبي حاتم الوقف على قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ قال: لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف (التي) ومثل هذا الحذف جائز، قال القفال: يقال: (الرجل جاءك عاقل) أي الرجل الذي جاءك عاقل. إذا ثبت أن هذا جائز في اللغة فنقول: الدليل على أن قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة لما قبله أنه لو لم يكن صلة لكان صفة، فقوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صفة، ثم قوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ صفة، فقد توالت صفتان لا تعلق لإحداهما بالأخرى، فكان يجب إدخال العاطف فيما بينهما، كما في قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ [النازعات: ٢٩] فلما لم يكن كذلك علمنا أن قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة للسماء، ثم قال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ ابتداء بذكر صفته، وللفراء أن يحتج على قوله بأنه لو كان قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة للسماء لكان التقدير: أم السماء (التي) بناها، وهذا يقتضي وجود سماء ما بناها الله، وذلك باطل.

المسألة الثالثة: الذي يدل على أنه تعالى هو الذي بنى السماء وجوه: **أحدها**: أن السماء جسم، وكل جسم محدث؛ لأن الجسم لو كان أزليًا لكان في الأزل إما أن يكون متحركًا أو ساكنًا، والقسمان باطلان، فالقول بكون الجسم أزليًا باطل، أما الحصر فلأنه إما أن يكون مستقرًا حيث هو فيكون ساكنًا، أو لا يكون مستقرًا حيث هو فيكون متحركًا، وإنما قلنا: إنه يستحيل أن يكون متحركًا؛ لأن ماهية الحركة تقتضي المسبوقية بالغير، وماهية الأزل تنافي المسبوقية بالغير، والجمع بينهما محال، وإنما قلنا: إنه يستحيل أن يكون ساكنًا؛ لأن السكون وصف ثبوتي وهو ممكن الزوال، وكل ممكن الزوال مفتقر إلى الفاعل المختار، وكل ما كان كذلك فهو محدث، فكل سكون محدث فيمتنع أن يكون أزليًا، وإنما قلنا: إن السكون وصف ثبوتي؛ لأنه يتبدل كون الجسم متحركًا بكونه ساكنًا مع بقاء ذاته، فأحدهما لابد وأن يكون أمرًا ثبوتيًا، فإن كان الثبوتي هو السكون فقد حصل المقصود، وإن كان الثبوتي هو الحركة وجب أيضًا أن يكون السكون ثبوتيًا؛ لأن الحركة عبارة عن الحصول في المكان بعد أن كان في غيره، والسكون عبارة عن الحصول في المكان بعد أن كان فيه بعينه، فالتفاوت بين الحركة والسكون ليس في الماهية، بل في المسبوقية بالغير وعدم المسبوقية بالغير، وذلك وصف عارضي خارجي عن الماهية، وإذا كان كذلك فإذا ثبت أن تلك الماهية أمر وجودي في إحدى الصورتين وجب أن تكون كذلك في صورة أخرى، وإنما قلنا: إن سكون السماء جائز الزوال؛ لأنه لو كان واجبًا

لذاته لامتنع زواله، فكان يجب أن لا تتحرك السماء لكنا نراها الآن متحركة، فعلمنا أنها لو كانت ساكنة في الأزل، لكان ذلك السكون جائز الزوال، وإنما قلنا: إن ذلك السكون لما كان ممكنًا لذاته، افتقر إلى الفاعل المختار لأنه لما كان ممكنًا لذاته، فلا بد له من مؤثر، وذلك المؤثر لا يجوز أن يكون موجبًا؛ لأن ذلك الموجب إن كان واجبًا، وكان غنيًّا في إيجابه لذلك المعلول عن شرط، لزم من دوامه دوام ذلك الأثر، فكان يجب أن لا يزول للسكون وإن كان واجبًا ومفتقرًا في إيجابه لذلك المعلول إلى شرط واجب لذاته، لزم من دوام العلة ودوام الشرط دوام المعلول، أما إن كان الموجب غير واجب لذاته، أو كان شرط إيجابه غير واجب لذاته، كان الكلام فيه كالكلام في الأول، فيلزم التسلسل، وهو محال أو الانتهاء إلى موجب واجب لذاته، وإلى شرط واجب لذاته، وحينئذٍ يعود الإلزام الأول، فثبت أن ذلك المؤثر لا بد وأن يكون فاعلاً مختارًا، فإذًا كل سكون، فهو فعل فاعل مختار، وكل ما كان كذلك فهو محدث؛ لأن المختار إنما يفعل بواسطة القصد، والقصد إلى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل محال، فثبت أن كل سكون فهو محدث، فثبت أنه يمتنع أن يكون الجسم في الأزل لا متحركًا ولا ساكنًا، فهو إذًا غير موجود في الأزل، فهو محدث، وإذا كان محدثًا افتقر في ذاته وفي تركيب أجزائه إلى موجد، وذلك هو الله تعالى، فثبت بالعقل أن باني السماء هو الله تعالى.

الحجة الثانية: كل ما سوى الواجب فهو ممكن، وكل ممكن محدث، وكل محدث فعل صانع، إنما قلنا: (كل ما سوى الواجب ممكن) لأنا لو فرضنا موجودين واجبين لذاتيهما لاشتركا في الوجود ولتباينا بالتعيين، فيكون كل منهما مركبًا مما به المشاركة، ومما به الممايزة، وكل مركب مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته، فكل واحد من الواجبين بالذات ممكن بالذات، هذا خلف، ثم ينقل الكلام إلى ذينك الجزأين، فإن كانا واجبينِ، كان كل واحد من تلك الأجزاء مركبًا، ويلزم التسلسل، وإن لم يكونا واجبين كان المفتقر إليهما أَوْلى بعدم الوجود، فثبت أن ماعدا الواجب ممكن، وكل ممكن فله مؤثر وكل ما افتقر إلى المؤثر محدث؛ لأن الافتقار إلى المؤثر لا يمكن أن يتحقق حال البقاء لاستحالة إيجاد الموجد، فلا بد وأن يكون إما حال الحدوث أو حال العدم، وعلى التقديرين فالحدوث لازم، فثبت أن ما سوى الواجب محدث، وكل محدث فلا بد له من محدث، فلا بد للسماء من بانٍ.

الحجة الثالثة: صريح العقل يشهد بأن جرم السماء لا يمتنع أن يكون أكبر مما هو الآن بمقدار خردلة، ولا يمتنع أن يكون أصغر بمقدار خردلة، فاختصاص هذا المقدار بالوقوع دون الأزيد والأنقص لا بد وأن يكون بمخصص، فثبت أنه لا بد للسماء من بانٍ: فإن قيل: لمَ لا يجوز أن يقال: إنه تعالى خلق شيئًا وأعطاه قدرة يتمكن ذلك المخلوق بتلك القدرة من خلق الأجسام فيكون خالق السماء وبانيها هو ذلك الشيء؟ الجواب: من العلماء من قال: المعلوم بالعقل أنه

لا بد للسماء من محدث، وأنه لا بد من الانتهاء آخر الأمر إلى قديم، والإله قديم واجب الوجود لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى، فأما نفي الواسطة فإنما يُعلم بالسمع فقوله في هذه الآية: ﴿بَنَىٰهَا﴾ يدل على أن باني السماء هو الله لا غيره. ومنهم من قال بل العقل يدل على بطلانه لأنه لما ثبت أن كل ما عداه محدث ثبت أنه قادر لا موجب، والذي كان مقدورًا له إنما صح كونه مقدورًا له بكونه ممكنًا، فإنك لو رفعت الإمكان بقي الوجوب أو الامتناع، وهما يحيلان المقدورية، وإذا كان ما لأجله صح في البعض أن يكون مقدورًا لله وهو الإمكان والإمكان عام في الممكنات، وجب أن يحصل في كل الممكنات صحة أن تكون مقدورة لله تعالى، وإذا ثبت ذلك ونسبة قدرته إلى الكل على السوية، وجب أن يكون قادرًا على الكل، وإذا ثبت أن الله قادر على الممكنات، فلو قدرنا قادرًا آخر قدر على بعض الممكنات، لزم وقوع مقدور واحد بين قادرين من جهة واحدة، وذلك محال؛ لأنه إما أن يقع بأحدهما دون الآخر وهو محال؛ لأنهما لما كانا مستقلين بالاقتضاء فليس وقوعه بهذا أَوْلى من وقوعه بذاك أو بهما معًا، وهو أيضًا محال لأنه يستغني بكل واحد منهما عن كل واحد منهما، فيكون محتاجًا إليهما معًا وغنيًّا عنهما معًا وهو محال، فثبت بهذا أنه لا يمكن وقوع ممكن آخر بسبب آخر سوى قدرة الله تعالى، وهذا الكلام جيد، لكن على قول من لا يثبت في الوجود مؤثرًا سوى الواحد، فهذا جملة ما في هذا الباب.

واعلم أنه تعالى لما بيَّن في السماء أنه بناها، بيَّن بعد ذلك أنه كيف بناها، وشرح تلك الكيفية من وجوه:

أولها: ما يتعلق بالمكان، فقال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾.

واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عمقًا، وإذا أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سَمْكًا، فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا أن ما بين الأرض وبينها مسيرة خمسمائة عام، و(قد) بيَّن أصحاب الهيئة مقادير الأجرام الفلكية وأبعاد ما بين كل واحد منها وبين الأرض. وقال آخرون: بل المراد: رفع سمكها من غير عمد. وذلك مما لا يصح إلا من الله تعالى.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ وفيه وجهان: الأول: المراد تسوية تأليفها. **وقيل:** بل المراد نفي الشقوق عنها، كقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] والقائلون بالقول الأول قالوا: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ عام فلا يجوز تخصيصه بالتسوية في بعض الأشياء، ثم قالوا: هذا يدل على كون السماء كرة؛ لأنه لو لم يكن كرة لكان بعض جوانبه سطحًا، والبعض زاوية، والبعض خطًا، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا، والبعض أبعد، فلا تكون التسوية الحقيقة حاصلة، فوجب أن يكون كرة حتى تكون التسوية الحقيقة حاصلة، ثم قالوا: لما ثبت أنها محدثة مفتقرة إلى فاعل مختار، فأي ضرر في الدين ينشأ من كونها كرة؟

قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠﴾

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أغطش قد يجيء لازمًا، يقال: (أغطش الليل) إذا صار مظلمًا، ويجيء متعديًا يقال: (أغطشه الله) إذا جعله مظلمًا، والغطش الظلمة، والأغطش شبه الأعمش، ثم ههنا سؤال وهو أن الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس، فقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يرجع معناه إلى أنه جعل المظلم مظلمًا، وهو بعيد. والجواب: معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان إنما حصلت بتدبير الله وتقديره، وحينئذٍ لا يبقى الإشكال.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أخرج نهارها، وإنما عَبَّر عن النهار بالضحى؛ لأن الضحى أكمل أجزاء النهار في النور والضوء.

المسألة الثالثة: إنما أضاف الليل والنهار إلى السماء؛ لأن الليل والنهار إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، ثم غروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك؛ فلهذا السبب أضاف الليل والنهار إلى السماء. ثم إنه تعالى لما وصف كيفية خلق السماء أتبعه بكيفية خلق الأرض وذلك من وجوه:

الصفة الأولى: قوله تعالى: : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: دحاها: بسطها، قال زيد بن عمرو بن نفيل [(١)]:

دَحَاهَا فَلَمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ ... عَلَى الْمَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالاَ

وقال أمية بن أبي الصلت [(٢)]:

دَحَوْتَ الْبِلاَدَ فَسَوَّيْتَهَا ... وَأَنْتَ عَلَى طَيِّهَا قَادِرٌ

قال أهل اللغة: في هذه اللفظة لغتان: دحوت أدحو، ودحيت أدحى، ومثله صفوت وصفيت ولحوت العود ولحيته وسأوت الرجل وسأيته وبأوت عليه وبأيت، وفي حديث علي عليه السلام: «اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحِيَّاتِ» [(٣)] أي باسط الأرضين السبع وهو المدحوات أيضًا، وقيل: أصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان، ومنه يقال: (إن الصبي يدحو بالكرة) أي يقذفها على وجه الأرض، و(أدحى النعامة موضعه الذي يكون فيه) أي بسطته وأزلت ما فيه من حصى حتى يتمهد له، وهذا يدل على أن معنى الدحو يرجع إلى الإزالة والتمهيد.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يقتضي كون الأرض بعد السماء، وقوله: في حم السجدة، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: ١١] يقتضي كون السماء بعد الأرض، وقد ذكرنا هذه المسألة في

---

(١) تقدمت ترجمة زيد بن عمرو بن نفيل.
(٢) تقدمت ترجمة أمية بن أبي الصلت.
(٣) لم أجده.

سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[البقرة: ٢٩] ولا بأس بأن نعيد بعض تلك الوجوه: أحدها: أن الله تعالى خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء ثانيًا، ثم دحى الأرض أي بسطها ثالثًا، وذلك لأنها كانت أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها، فإن قيل: الدلائل الاعتبارية دلت على أن الأرض الآن كرة أيضًا، وإشكال آخر وهو أن الجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي، فيستحيل أن يكون هذا الجسم مخلوقًا ولا يكون ظاهره مدحوًّا مبسوطًا. وثانيها: أن لا يكون معنى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾: مجرد البسط، بل يكون المراد أنه بسطها بسطًا مهيأ لنبات الأقوات، وهذا هو الذي بيَّنه بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾[النازعات: ٣١] وذلك لأن هذا الاستعداد لا يحصل للأرض إلا بعد وجود السماء فإن الأرض كالأم والسماء كالأب، وما لم يحصلا لم تتولد أولاً المعادن والنباتات والحيوانات. وثالثها: أن يكون قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مع ذلك كقوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم: ١٣] أي مع ذلك، وقولك للرجل أنت كذا وكذا، ثم أنت بعدها كذا لا تريد به الترتيب، وقال تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[البلد: ١٣-١٧] والمعنى وكان مع هذا من أهل الإيمان بالله، فهذا تقرير ما نُقل عن ابن عباس ومجاهد والسدي وابن جريج أنهم قالوا في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي مع ذلك دحاها.

المسألة الثالثة: لما ثبت أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السماء ثانيًا، ثم دحى الأرض بعد ذلك ثالثًا، ذكروا في تقدير تلك الأزمنة وجوهًا، روي عن عبد الله بن عمر: (خَلَقَ اللَّهُ الْبَيْتَ قَبْلَ الْأَرْضِ بِأَلْفَيْ سَنَةٍ، وَمِنْهُ دُحِيَتِ الْأَرْضُ)(١) واعلم أن الرجوع في أمثال هذه الأشياء إلى كتب الحديث أَوْلى.

قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ماؤها: عيونها المتفجرة بالماء، ومرعاها: رعيها، وهو في الأصل موضع

(١) صحيح: أخرجه الطبري في (تفسيره) (٦/ ٢٠) من طريق عبيد الله بن موسى قال: أخبرنا شيبان عن الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٦٣) حديث رقم (٣٩٩١) من طريق عبيد الله بن موسى قال: أخبرنا شيبان عن الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٦٣) حديث رقم (٣٩١١) من طريق عبيد الله بن موسى أنبأنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ٤٣١) حديث رقم (٣٩٨٣) من طريق عبيد الله بن عبد الجبار العطاردي أخبرنا أبي أخبرنا جرير بن عبد الحميد عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به، وفي (دلائل النبوة) (١/ ٤٢٣) حديث رقم (٣٧٦) من طريق عبيد الله بن موسى قال: حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو... به وقال: تابعه منصور عن مجاهد. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٣/ ٦٢٥) وقال: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح.

الرعي، ونصب (الأرض والجبال) بإضمار دحا وأرسى على شريطة التفسير، وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء، فإن قيل: هلا أدخل حرف العطف على (أخرج؟) قلنا لوجهين: الأول: أن يكون معنى دحاها بسطها ومهدها للسكنى، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المشارب والمآكل وإمكان القرار عليها بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتادًا لها حتى تستقر ويستقر عليها. والثاني: أن يكون ﴿أَخْرَجَ﴾ حالاً، والتقدير: والأرض بعد ذلك دحاها حال ما أخرج منها ماءها ومرعاها.

المسألة الثانية: أراد بمرعاها ما يأكل الناس والأنعام، ونظيره قوله في النحل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[النحل: ١٠] وقال في سورة أخرى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾[عبس: ٢٥، ٢٦] إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[عبس: ٣٢] فكذا في هذه الآية، واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[يوسف: ١٢] وقرئ (نرتع) من الرعي، ثم قال ابن قتيبة: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠] فانظر كيف دل بقوله: ﴿مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام من العشب والشجر، والحب والثمر والعصف والحطب، واللباس والدواء، حتى النار والملح، أما النار فلا شك أنها من العيدان، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[الواقعة: ٧١، ٧٢] وأما الملح فلا شك أنه متولد من الماء، وأنت إذا تأملت علمت أن جميع ما يتنزه به الناس في الدنيا ويتلذذون به، فأصله الماء والنبات، ولهذا السبب تردد في وصف الجنة ذكرهما، فقال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[البقرة: ٢٥] ثم الذي يدل على أنه تعالى أراد بالمرعى كل ما يأكله الناس والأنعام قوله في آخر هذه الآية: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ والكلام في شرح منافع الجبال قد تقدم.

ثم إنه تعالى لما بيَّن كيفية خلقه الأرض وكمية منافعها قال: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ والمعنى أنا إنما خلقنا هذه الأشياء متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم. واحتج به من قال: إن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح، والكلام فيه قد مر غير مرة،.

واعلم أنا بينا أنه تعالى إنما ذكر كيفية خلقه السماء والأرض ليستدل بها على كونه قادرًا على الحشر والنشر، فلما قرر ذلك وبيَّن إمكان الحشر عقلاً أخبر بعد ذلك عن وقوعه.

فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وفي اشتقاقها وجوه، قال المبرد: أُخذت فيما أحسب من قولهم: طم الفرس طميمًا، إذا استفرغ جهده في الجري، وطم الماء، إذا ملأ النهر كله. وقال الليث: الطم طم البئر بالتراب، وهو الكبس، ويقال: طم السيل

الركية، إذا دفنها حتى يسويها، ويقال للشيء الذي يكبر حتى يعلو: قد طم، والطامة: الحادثة التي تطم على ما سواها، ومن ثَم قيل: فوق كل طامة طامة، قال القفال: أصل الطم: الدفن والعلو، وكل ما غلب شيئًا وقهره وأخفاه فقد طمه، ومنه الماء الطامي وهو الكثير الزائد، والطاغي والعاتي والعادي سواء وهو الخارج عن أمر الله تعالى المتكبر، فالطامة اسم لكل داهية عظيمة يُنسى ما قبلها في جنبها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

المسألة الثانية: قد ظهر بما ذكرنا أن معنى الطامة الكبرى الداهية الكبرى، ثم اختلفوا في أنها أي شيء هي: فقال قوم: إنها يوم القيامة لأنه يشاهد فيه من النار، ومن الموقف الهائل، ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة - ما يُنسى معه كل هائل، وقال الحسن: إنها هي النفخة الثانية التي عندها تُحشر الخلائق إلى موقف القيامة. وقال آخرون: إنه تعالى فسر الطامة الكبرى بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ فالطامة تكون اسمًا لذلك الوقت، فيحتمل أن يكون ذلك الوقت وقت قراءة الكتاب، على ما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] ويحتمل أن تكون تلك الساعة هي الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، ثم إنه تعالى وصف ذلك اليوم بوصفين:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ يعني إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تذكرها، وكان قد نسيها، كقوله: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ أي أنها تظهر إظهارًا مكشوفًا لكل ناظر ذي بصر، ثم فيه وجهان: **أحدهما**: أنه استعارة في كونه منكشفًا ظاهرًا، كقولهم: تبين الصبح لذي عينين. وعلى هذا التأويل لا يجب أن يراه كل أحد. **والثاني**: أن يكون المراد أنها بُرزت ليراها كل من له عين وبصر، وهذا يفيد أن كل الناس يرونها من المؤمنين والكفار، إلا أنها مكان الكفار ومأواهم والمؤمنون يمرون عليها، وهذا التأويل متأكد بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢] فإن قيل: إنه تعالى قال في سورة الشعراء: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١] فخص الغاوين بتبريزها لهم. قلنا: إنها برزت للغاوين، والمؤمنون يرونها أيضًا في الممر، ولا منافاة بين الأمرين.

المسألة الثانية: قرأ أبو نهيك: (وَبَرَزَتْ) وقرأ ابن مسعود: (لمن رأى) وقرأ عكرمة: (لمن ترى) والضمير للجحيم، كقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢] وقيل: لمن ترى يا محمد من الكفار الذين يؤذونك.

واعلم أنه تعالى لما وصف حال القيامة في الجملة قسم المكلفين قسمين: الأشقياء والسعداء، فذكر حال الأشقياء.

فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في جواب قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤] وجهان: الأول: قال الواحدي: إنه محذوف على تقدير: إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، ودل على هذا المحذوف ما ذكر في بيان مأوى الفريقين، ولهذا كان يقول مالك بن مغول في تفسير الطامة الكبرى، قال: إنها إذا سبق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار والثاني: أن جوابه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وكأنه جزاء مركب على شرطين، نظيره إذا جاء الغد، فمن جاءني سائلاً أعطيته، كذا ههنا، أي إذا جاءت الطامة الكبرى فمن جاء طاغيًا فإن الجحيم مأواه.

المسألة الثانية: منهم من قال: المراد بقوله: ﴿طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ النضر وأبوه الحارث، فإن كان المراد أن هذه الآية نزلت عند صدور بعض المنكرات منه فجيد، وإن كان المراد تخصيصها به، فبعيد لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لا سيما إذا عرف بضرورة العقل أن الموجب لذلك الحكم هو الوصف المذكور.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿طَغَىٰ﴾ إشارة إلى فساد حال القوة النظرية؛ لأن كل من عرف الله عرف حقارة نفسه، وعرف استيلاء قدرة الله عليه، فلا يكون له طغيان وتكبر، وقوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى فساد حال القوة العملية، وإنما ذكر ذلك لما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[1] ومتى كان الإنسان والعياذ بالله موصوفًا بهذين

---

(١) موضوع: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٧/ ٣٣٨) حديث رقم (١٠٥٠١) وابن أبي الدنيا في (الزهد) (١/ ١٠/ ٩) كلاهما من طريق سريج بن يونس حدثنا عباد بن العوام عن هشام أو عوف عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره، وأورده الفتني في (الموضوعات) (١/ ١٧٣) وقال: لابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلاً، وفي المقاصد هو عن الحسن مرسلاً وعن علي بلا سند، ومن قول عيسى بن مريم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وقيل: قول جندب رضي الله عنه. ويرد على هذا القائل وعلى من حكم بوضعه رفع الحسن له فإن مرسلاته صحاح إذا رواها الثقات. اهـ بتصرف. وأورده العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٤٤) وقال: رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً، وذكره الديلمي في الفردوس وتبعه ولده بلا سند عن علي رفعه، وقال ابن الغرس الحديث ضعيف، ورواه البيهقي أيضًا في الزهد وأبو نعيم من قول عيسى بن مريم، وفي رواية لولد أحمد بلفظ رأس الخطيئة حب الدنيا، والنساء حبالة الشيطان، والخمر مفتاح كل شر. ولأحمد في الزهد عن سفيان، قال: كان عيسى بن مريم يقول: «حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كثير» قالوا: وما داؤه؟ قال: «لا يسلم صاحبه من الفخر والخيلاء»، قالوا: فإن سلم قال: «شغله إصلاحه عن ذكر الله تعالى»، وعند ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان له أنه من قول مالك بن دينار، وعند ابن يونس في تاريخ مصر له من قول سعيد بن مسعود، وجزم ابن تيمية بأنه من قول جندب البجلي، قال في المقاصد: وبالأول يرد عليه وعلى غيره ممن صرح بالحكم عليه بالوضع أي كالصغاني لقول ابن المديني؟ مرسلات الحسن إذا رواها عنه الثقات صحاح، ما أقل ما يسقط منها. وقال أبو زرعة: كل شيء يقول الحسن فيه: قال رسول الله ﷺ وجدت له أصلاً ثابتًا، ما خلا أربعة أحاديث. وليته ذكرها، وقال في الدرر: قد عد الحديث في الموضوعات، وتعقبه شيخ الإسلام ابن حجر بأنه أثنى على مراسيل الحسن. انتهى، =

الأمرين، كان بالغًا في الفساد إلى أقصى الغايات، وهو الكافر الذي يكون عقابه مخلدًا، وتخصيصه بهذه الحالة يدل على أن الفاسق الذي لا يكون كذلك، لا تكون الجحيم مأوى له.

المسألة الرابعة: تقدير الآية: فإن الجحيم هي المأوى له، ثم حذفت الصلة لوضوح المعنى، كقولك للرجل: (غض الطرف) أي غض طرفك، وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون التقدير: فإن الجحيم هي المأوى اللائق بمن كان موصوفًا بهذه الصفات والأخلاق.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾

ثم ذكر تعالى حال السعداء فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ واعلم أن هذين الوصفان مضادان للوصفين اللذين وصف الله أهل النار بهما، فقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ ضد قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ضد قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٨]واعلم أن الخوف من الله لا بد وأن يكون مسبوقًا بالعلم بالله على ما قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]ولما كان الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى، لا جرم قدم العلة على المعلول، وكما دخل في ذينك الصفتين جميع القبائح، دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات، وقيل: الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أُحد، ووقى رسولَ الله بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه.

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ ﴾

واعلم أنه تعالى لما بَيَّن بالبرهان العقلي إمكان القيامة، ثم أخبر عن وقوعها، ثم ذكر أحوالها العامة، ثم ذكر أحوال الأشقياء والسعداء فيها، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

واعلم أن المشركين كانوا يسمعون إثبات القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة، مثل أنها طامة وصاخة وقارعة، فقالوا على سبيل الاستهزاء: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ فيحتمل أن يكون ذلك على سبيل الإيهام لأتباعهم أنه لا أصل لذلك، ويحتمل أنهم كانوا يسألون الرسول عن وقت القيامة استعجالاً، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]ثم في قوله: ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ قولان: أحدهما: متى إرساؤها، أي إقامتها، أرادوا متى يقيمها الله ويوجدها ويكونها والثاني:

=لكن في اللآلئ للحافظ المذكور مراسيل الحسن عندهم تشبه الريح. انتهى، وقال الدارقطني: في مراسيله ضعف. وللديلمي عن أبي هريرة رفعه: «أعظم الآفات تصيب أمتي حبهم الدنيا وجمعهم الدنانير والدراهم، لا خير في كثير ممن جمعها إلا من سلطه الله على هلكتها في الحق» وفي تاريخ ابن عساكر عن سعيد بن مسعود الصدفي التابعي بلفظ: «حب الدنيا رأس الخطايا». ا. هـ.

﴿أَيَّانَ﴾ منتهاها ومستقرها، كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهي إليه.

ثم إن الله تعالى أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ وفيه وجهان: **الأول**: معناه في أي شيء أنت عن تذكر وقتها لهم، وتبين ذلك الزمان المعين لهم، ونظيره قول القائل: إذا سأله رجل عن شيء لا يليق به: ما أنت وهذا؟ وأي شيء لك في هذا؟ وعن عائشة: «**لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ السَّاعَةَ وَيَسْأَلُ عَنْهَا حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ**»(١) فهو على هذا تعجيب من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها؟ والمعنى أنهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علمها لم يؤته أحدًا من خلقه.

الوجه الثاني: قال بعضهم: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم، أي فيم هذا السؤال؟ ثم قيل: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي أرسلك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل ذاكرًا من أنواع علاماتها، وواحدًا من أقسام أشراطها، فكفاهم بذلك دليلاً على دنوها ووجوب الاستعداد لها، ولا فائدة في سؤالهم عنها.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: معنى الآية أنك إنما بُعثت للإنذار، وهذا المعنى لا يتوقف على علمك بوقت قيام القيامة، بل لو أنصفنا لقلنا بأن الإنذار والتخويف إنما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلاً.

المسألة الثانية: أنه عليه الصلاة والسلام منذر للكل إلا أنه خص بمن يخشى؛ لأنه الذي ينتفع بذلك الإنذار.

المسألة الثالثة: قرئ منذر بالتنوين وهو الأصل، قال الزجاج: مفعل وفاعل إذا كان كل واحد منهما لما يستقبل أو للحال ينون؛ لأنه يكون بدلاً من الفعل، والفعل لا يكون إلا نكرة، ويجوز حذف التنوين لأجل التخفيف، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال، فإذا أريد الماضي فلا يجوز إلا الإضافة كقوله: (هو منذرُ زيد أمس).

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

وتفسير هذه الآية قد مضى ذكره في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الاحقاف: ٣٥] والمعنى أن ما أنكروه سيرونه حتى كأنهم أبدًا فيه وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ثم مضت (فإن قيل): قوله: ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ معناه ضحى العشية، وهذا غير معقول لأنه ليس للعشية ضحى: (قلنا): الجواب عنه من وجوه: أحدها: قال عطاء عن ابن عباس:

(١) أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٥٠٦) حديث رقم (١١٦٤٥) من طريق مؤمل بن الفضل أخبرنا عيسى عن إسماعيل أخبرنا طارق بن شهاب... به، والطبري في (تفسيره) (١٣/ ٢٩٢) حديث رقم (١٥٤٦٤) والضياء في (الأحاديث المختارة) (٣/ ٢٣٣) وابن أبي الدنيا في (الأهوال) (١/ ٩/ ٧) جميعًا من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن طارق بن شهاب... به، وذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٥٢٣) وقال: هذا إسناد قوي.

الهاء والألف صلة للكلام، يريد لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى. **وثانيها:** قال الفراء والزجاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافتها إلى يوم العشية، كأنه قيل: إلا عشية أو ضحى يومها، والعرب تقول: (آتيك العشية أو غداتها) على ما ذكرنا **وثالثها:** أن النحويين قالوا: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فالضحى، المتقدم على عشية يصح أن يقال: إنه ضحى تلك العشية، وزمان المحنة قد يعبر عنه بالعشية، وزمان الراحة قد يعبر عنه بالضحى، فالذين يحضرون في موقف القيامة يعبرون عن زمان محنتهم بالعشية وعن زمان راحتهم بضحى تلك العشية، فيقولون: كأن عمرنا في الدنيا ما كان إلا هاتين الساعتين.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة النازعات

مَكِّية بإِجماع. وهي خمسٌ أو ستٌّ وأربعون آية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾: أَقْسمَ سبحانه بهذه الأشياء التي ذَكَرها على أنَّ القيامة حقٌّ. و«النازعاتِ»: الملائكةُ التي تَنزِعُ أرواحَ الكفار؛ قاله عليٌّ ﷺ[1]، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروقٌ ومجاهدٌ: هي الملائكةُ تَنزِعُ نفوسَ بني آدم[2]. قال ابن مسعود: يريدُ أنفُسَ الكُفار يَنزِعُها ملكُ الموتِ من أجسادهم، مِن تحت كلِّ شعرةٍ، ومن تحت الأظافير وأصولِ القدمين، نَزْعاً كالسَّفُّود يُنزَعُ من الصُّوف الرَّطب، ثم يُغرِقُها، أي: يُرْجِعُها في أجسادهم، ثم ينزِعُها، فهذا عملُه بالكفار[3]. وقاله ابن عباس[4].

وقال سعيد بن جبير: نُزِعتْ أرواحُهم، ثم غُرِّقتْ، ثم حُرِقت؛ ثم قُذِفَ بها في النار. وقيل: يرى الكافر نفسَه في وقت النَّزعِ كأنَّها تغرق.

---

(١) زاد المسير ٩/ ١٤ ، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧ والنكت والعيون ٦/ ١٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ .

(٣) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

وقال السُّدِّيُّ: و«النازِعاتِ»: هي النفوسُ حين تَغرَق في الصدور.

مجاهد: هي الموتُ ينزعُ النفوس.

الحسن وقتادة: هي النجومُ تَنْزِع من أُفقٍ إلى أفق[١]، أي: تذهب، مِن قولهم: نَزَع إليه، أي: ذهب، أو من قولهم: نَزَعَت الخيل، أي: جرت. «غَرْقاً» أي: أنَّها تَغْرَقُ وتَغيبُ وتطلعُ من أفقٍ إلى أفقٍ آخرَ. وقاله أبو عُبيدةَ وابنُ كَيسان والأخفش[٢].

وقيل: النازعات القِسِيُّ تنزعُ بالسِّهام؛ قاله عطاءٌ وعِكرمة[٣]. و«غَرْقاً» بمعنى: إغراقاً، وإغراقُ النازع في القوس أنْ يبلغ غايةَ المدِّ، حتى ينتهيَ إلى النَّصْل. يقال: أغرقَ في القوس، أي: استَوْفَى مدَّها، وذلك بأنْ تنتهي إلى العَقَب الذي عند النَّصلِ الملفوفِ عليه. والاستغراقُ: الاستيعاب. ويقال لقِشْرةِ البيضةِ الداخلةِ: «غِرقِئ»[٤].

وقيل: هم الغُزاة الرُّماة[٥].

قلت: هو والذي قَبلَه سواءٌ؛ لأنَّه إذا أقسمَ بالقِسِيِّ فالمرادُ النَّازِعون بها تعظيماً لها، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ والله أعلم. وأراد بالإغراق: المبالغةَ في النَّزع، وهو سائغٌ في جميع وجوهِ تأويلها.

وقيل: هي الوحشُ تنزِعُ إلى الكلأ[٦] وتَنْفِرُ. حكاه يحيى بنُ سلام. ومعنى «غرقاً» أي: إبعاداً في النزع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكةَ تَنْشِطُ نفسَ المؤمنِ

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٥٨-٥٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤١ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٩ عن عطاء.

(٤) وهي القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض. المعجم الوسيط (غرق).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٦) في (د) و(م) و(ي): من الكلأ، وكذا وقع في النكت والعيون ٦/ ١٩٢ والكلام منه، وفي (ظ): بين الكلأ، والمثبت من البحر ٨/ ٤١٩ ، وروح المعاني ٣٠/ ٢٥ .

فتقبضُها، كما يُنشَط العِقالُ من يد البعير إذا حُلَّ عنه. وحكى هذا القولَ الفرَّاءُ ثم قال: والذي سمعتُ من العرب أنْ يقولوا: أنْشَطْتُ، وكأنَّما أُنشِطَ من عِقال. ورَبَطها: نَشَطها، والرابط: الناشِط، وإذا رَبَطْتَ الحبلَ في يد البعير فقد نشَطْتَه، فأنت ناشطٌ، وإذا حَلَلْته فقد أنْشَطْته، وأنت مُنشِط[١].

وعن ابن عباس أيضاً: هي أنفُسُ المؤمنين عند الموتِ تَنْشطُ للخروج، وذلك أنَّه ما مِن مؤمنٍ إلاَّ وتُعرَضُ عليه الجنةُ قبل أن يموت، فيرى فيها ما أعدَّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين، فهم يَدْعونه إليها، فنفْسُه إليهم نشِطَةٌ أن تخرج فتأتيهم[٢].

وعنه أيضاً قال: يعني أنفسَ الكفارِ والمنافقين تُنْشَطُ كما يُنشَط العقَبُ الذي يُعْقَبُ به السهم. والعقَبُ بالتحريك: العَصَبُ الذي تُعمل منه الأوتار، الواحدةُ عَقَبةٌ؛ تقول منه: عَقَبَ السهمَ والقدحَ والقوسَ عَقْباً: إذا لوى شيئاً منه عليه[٣]. والنَّشْطُ: الجَذْبُ بسرعة، ومنه الأنشوطةُ: عقدةٌ يسَهُلُ انحِلالُها إذا جُذِبتْ مثل عُقدة التكَّة. وقال أبو زيد: نَشَطْتُ الحبلَ أنشُطه نَشطاً: عَقَدتُه بأُنشوطةٍ. وأنشَطْتُه، أي: حَلَلْتُه، وأنشطْتُ الحبلَ[٤]، أي: مَدَدْتُه حتى يَنحلَّ. وقال الفرَّاء: أُنشِطَ العقالُ، أي: حُلَّ، ونُشِط أي: رُبِطَ الحبلُ في يديه[٥].

وقال الليث[٦]: أنشطْتُه بأُنشوطة وأُنشوطتين، أي: أوثقته، وأنشطتُ العِقال: أي: مددتُ أُنشوطَته فانحلَّتْ. قال: ويقال: نَشَطَ بمعنى أنشَط، لغتان بمعنى. وعليه

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩-٦٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٤٤١، والطبرسي في مجمع البيان ٣٠/ ٢١.

(٣) الصحاح (عقب).

(٤) في الصحاح (نشط) والكلام منه: وانتشطت الحبل، وكلاهما صواب كما في كتاب العين ٦/ ٢٣٣.

(٥) سلف قول الفراء قريباً.

(٦) بنحوه في العين ٦/ ٢٣٢.

يصحُّ قولُ ابنِ عباس المذكورُ أوَّلاً.

وعنه أيضاً: الناشطاتُ: الملائكةُ؛ لنشاطها، تذهبُ وتَجيءُ بأمرِ الله حيثُما كان.

وعنه أيضاً وعن عليٍّ رضي الله عنهما: هي الملائكةُ تَنْشطُ أرواحَ الكفار، ما بين الجِلْدِ والأظفارِ، حتى تُخْرِجَها من أجوافهم، نشطاً بالكَرْب والغم(١)، كما يُنشَط الصوفُ من سَفُّود الحديد. وهي من النَّشط بمعنى الجَذْبِ، يقال: نَشَطْتُ الدَّلْوَ، أنشِطُها بالكسر، وأنشُطها بالضم: أي: نزعتها. قال الأصمعيُّ: بئرٌ أنشاطٌ: أي: قريبةُ القَعْرِ، تخرجُ الدَّلوُ منها بجذبةٍ واحدة. وبئرٌ نشوطٌ، قال: وهي التي لا يخرجُ منها الدلوُ حتى تُنشَطَ كثيراً(٢).

وقال مجاهد: هو الموتُ يَنشِطُ نفسَ الإنسان.

السُّدِّيُّ: هي النفوسُ حين تُنشَطُ من القدمين(٣).

وقيل: النازعاتُ: أيْدي الغُزاةِ أو أنفسُهم، تنزع القِسِيَّ بإغراق السهام، والتي تَنشِطُ الأوهاق(٤).

عِكرمةُ وعطاءٌ: هي الأوهاقُ تَنشِط البهائم(٥).

وعن عطاء أيضاً وقتادةُ والحسنُ والأخفشُ: هي النجومُ تَنشِطُ من أُفقٍ إلى أُفق،

---

(١) ذكره عن علي ﷺ البغوي ٤/ ٤٤٢، وأخرجه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

(٢) الصحاح (نشط).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣.

(٤) في (م): وهي التي تنشط الأوهاق، والمثبت من النسخ الخطية، والكشاف ٤/ ٢١٢ والكلام منه. وقد سلف نحو هذا القول قريباً. والأوهاق جمع وَهَق، وهو الحبل في أحد طرفيه أنشوطة يُطرح في عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ. المعجم الوسيط (وهق).

(٥) في النسخ عدا (ظ): السهام، والمثبت من (ظ). وأخرج هذا القول عن عطاء الطبري ٢٤/ ٦١ دون قوله: تنشط البهائم. وكذا أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١١.

أي: تذهبُ[(١)]. وكذا في «الصِّحَاح»: «وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا» يعني النجومَ [تَنْشِطُ] من بُرْجٍ إلى برج، كالثورِ الناشطِ من بلدٍ إلى بلدٍ. والهمومُ تَنشِطُ بصاحبها؛ قال هِمْيان ابنُ قُحافةَ:

أمْسَتْ همومي تَنْشِطُ المَنَاشِطَا الشامَ بي طَوراً وطَوْراً واسِطَا[(٢)]

أبو عبيدَة وعطاءٌ أيضاً: الناشطاتُ: هي الوحشُ حين تنشِطُ من بلد إلى بلد، كما أنَّ الهمومَ تنشِطُ الإنسانَ من بلد إلى بلد؛ وأنشد قول هِميان: أمْسَتْ هُمومي، البيت[(٣)].

وقيل: «والنازِعاتِ» للكافرين «والناشِطاتِ» للمؤمنين، فالملائكةُ يجذبون رُوح المؤمنِ برِفْقٍ، والنزعُ: جذبٌ بشدةٍ، والنَّشطُ: جذبٌ بِرفْقٍ. وقيل: هما جميعاً للكفار، والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ قال عليٌّ ﷺ: هي الملائكةُ تَسْبَحُ بأرواح المؤمنين[(٤)].

الكلبيُّ: هي الملائكةُ تقبضُ أرواحَ المؤمنين، كالذي يسبحُ في الماء، فأحياناً يَنْغَمِسُ، وأحياناً يرتفع، يَسلُّونها سَلًّا رفيقاً بسهولة، ثم يَدَعونها حتى تَسْتَريح[(٥)].

وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكةُ ينزلون من السماء مُسْرِعين لأمر الله،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ ، وزاد المسير ٩/ ١٦ .

(٢) الصحاح (نشط)، وما سلف بين حاصرتين منه، والبيت في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٢ ، وتهذيب اللغة ١١/ ٣١٤ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ . وهميان ابن قحافة هو أحد بني عُوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويقال: أحد بني عامر بن عبيد بن الحارث، راجز مُحْسِن إسلامي، وكان في الدولة الأموية. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٣٠٤ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ عن أبي عبيدة، وهو بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤ ، وذكره عن عطاء ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ . وذكر الطبري ٢٤/ ٦١-٦٢ جميع هذه الأقوال ثم قال: فكلُّ ناشطٍ فداخِلٌ فيما أقسم به، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بأن المعنيَّ بالقَسم من ذلك بعضٌ دون بعض.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

(٥) زاد المسير ٩/ ١٦ .

كما يقال للفرس الجواد: سابح، إذا أسرعَ في جَرْيِه[١]. وعن مجاهد أيضاً: الملائكةُ تَسْبحُ في نزولها وصُعودها[٢].

وعنه أيضاً: السابحات: الموتُ يَسْبحُ في أنفُسِ بني آدم[٣].

وقيل: هي الخيلُ الغُزاةُ؛ قال عنترة:

والخيلُ تعلَمُ حين تَسْـ ـبَحُ في حِياضِ الموتِ سَبْحا[٤]

وقال امرؤُ القيس:

مِسَحٌّ إذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيد المُرَكَّلِ[٥]

قتادةُ والحسن: هي النجومُ تَسْبَحُ في أفلاكها، وكذا الشمسُ والقمر؛ قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠][٦].

عطاء: هي السُّفن تَسْبحُ في الماء[٧].

ابن عباس: السابحاتُ: أرواحُ المؤمنين تسبحُ شوقاً إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ ، وزاد المسير ٩/ ١٦ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٦٢-٦٣ .

(٢) ذكر الطبري ٢٤/ ٦٣ هذا القول مع الذي قبله على أنهما قول واحد، ولم يفرق بينهما.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وزاد المسير ٩/ ١٦ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٩/ ١٩٣ ، ولم نقف على البيت في المطبوع من ديوان عنترة، وذكر القول دون البيت البغوي ٤/ ٤٤٢ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص٢٠ . قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٣٧ : المِسَحُّ: الكثير الجَرْي. والسابحات: السريعات. والوَنى: الفتور. والكديد: المكان الغليظ. والمركَّل: الذي أثَّرت فيه بحوافرها. ومعنى البيت: أن الخيل السريعات إذا فترت وأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جَرْياً سهلاً كما تَسِحُّ السحابُ المطرَ.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ . وأخرجه عن عطاء الطبري ٢٤/ ٦٣ ، وعن الحسن أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١١ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣ .

(٨) أخرجه جويبر في تفسيره، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ قال عليٌّ ﷺ: هي الملائكةُ تَسْبِقُ الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام. وقاله مسروقٌ ومجاهد.

وعن مجاهدٍ أيضاً وأبي رَوْق: هي الملائكةُ سبقَتْ ابنَ آدمَ بالخير والعمل الصالح. وقيل: تسبقُ بني آدمَ إلى العمل الصالح فتكتُبه.

وعن مجاهد أيضاً: الموتُ يسبقُ الإنسان.

مقاتل: هي الملائكة تسبقُ بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

ابن مسعود: هي أنفُسُ المؤمنين تسبقُ إلى الملائكة الذين يَقْبضونها وقد عايَنَتِ السرور، شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته. ونحوه عن الربيع، قال: هي النفوسُ تسبقُ بالخروج عند الموت.

وقال قتادةُ والحسن ومعمر: هي النجومُ يسبقُ بعضُها بعضاً في السير.

عطاء: هي الخيلُ التي تسبقُ إلى الجهاد(١).

وقيل: يحتملُ أن تكون السابقاتُ ما يسبقُ من الأرواح قَبْلَ الأجسادِ إلى جنةٍ أو نار؛ قاله الماوَرْديّ(٢).

وقال الجُرجانيُّ: ذَكَر «فالسابقات» بالفاء لأنَّها مشتقَّةٌ من التي قبلها، أي: واللّائي يَسبَحْنَ فيَسْبِقْنَ، تقول: قام فذهب؛ فهذا يوجبُ أن يكون القيامُ سبباً للذهاب، ولو قلتَ: قام وذهب، لم يكن القيامُ سبباً للذهاب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ قال القُشيريُّ: أجمعوا على أنَّ المرادَ الملائكة.

وقال الماوَرْديُّ(٣): فيه قولان: أحدُهما: الملائكة؛ قاله الجمهور. والقول

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ ، وزاد المسير ٩/ ١٧ .

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٩٤ .

(٣) المصدر السابق.

الثاني: هي الكواكبُ السبعةُ؛ حكاه خالد مَعْدان عن مُعاذ بن جبل.

وفي تدبيرها الأمرَ وجهان: أحدُهما: تدبيرُ طُلوعِها وأُفولها. الثاني تدبيرُ ما قضاه الله تعالى فيها من تقلُّب الأحوال. وحكى هذا القولَ أيضاً القُشيريُّ في تفسيره، وأنَّ الله تعالى علَّق كثيراً من تدبير أمرِ العالَمِ بحركاتِ النجوم، فأُضيفَ التدبيرُ إليها وإن كان من الله، كما يسمَّى الشيءُ باسمِ ما يُجاوِرُه.

وعلى أنَّ المرادَ بالمدبِّرات الملائكةُ، فتدبيرُها: نزولُها بالحلالِ والحرام وتَفصيلِهِ؛ قاله ابن عباس وقتادةُ وغيرهما[١]. وهو إلى الله جل ثناؤه، ولكنْ لمَّا نزلت الملائكةُ به سمِّيتْ بذلك، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة:٩٧] يعني جبريل، نزَّله على قلبِ محمدٍ ﷺ، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي أنزله.

وروى عطاءٌ عن ابن عباس: «فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا»: الملائكةُ وُكِّلتْ بتدبيرِ أحوالِ الأرضِ في الرياح والأمطار وغيرِ ذلك. قال عبد الرحمن بنُ سابطٍ: تدبيرُ أمرِ الدنيا إلى أربعةٍ؛ جبريلُ وميكائيلُ وملكُ الموتِ ـ واسمُه عزرائيل ـ وإسرافيلُ. فأمَّا جبريلُ فموكَّلٌ بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكَّلٌ بالقَطْرِ والنبات، وأمَّا ملكُ الموتِ فموكَّلٌ بقبضِ الأنفسِ في البرِّ والبحر، وأما إسرافيلُ فهو ينزل بالأمر عليهم[٢]. وليس من الملائكة أقربُ من إسرافيل[٣]، وبينه وبين العرشِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ.

وقيل: أي: وُكِّلوا بأمورٍ عرَّفهم الله بها[٤].

ومن أوَّلِ السورةِ إلى هنا قَسَمٌ أقسمَ الله به، ولله أن يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِه،

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠ دون نسبة.

(٢) سلف ١٧/ ٨ .

(٣) قطعة من خبر أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٩٥) عن وهيب بن عروة قال: بلغني أن أقرب الخلق من الله عز وجل إسرافيل...

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤١٩ ، والبغوي ٤/ ٤٤٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وليس لنا ذلك إلَّا به عزَّ وجلّ. وجوابُ القسمِ مُضمَرٌ، كأنه قال: والنازِعاتِ وكذا وكذا لَتُبعثُنَّ ولتحاسَبُنَ. أُضمِرَ لمعرفةِ السامِعينَ بالمعنى؛ قاله الفراء[١]. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ ألَسْتَ تَرى أنه كالجواب لقولهم: «أئِذا كنَّا عِظاماً نَخِرةً» نُبْعَث؟ فاكتفى بقوله: «أئِذا كنَّا عِظاماً نَخِرةً».

وقال قومٌ: وقع القسمُ على قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ وهذا اختيارُ التِّرمذيِّ ابن عليٍّ. أي: فيما قصصتُ مِن ذِكْرِ يومِ القيامةِ، وذِكْرِ موسى وفرعونَ «لعِبرةً لِمن يخشى».

ولكنَّ وَقْعَ القسمِ على ما في السورة مذكوراً ظاهراً بارزاً أحرى وأقْمنُ مِن أنْ يُؤتَى بشيءٍ ليس بمذكورٍ فيها، قال ابن الأنباريِّ: وهذا قبيح؛ لأنَّ الكلامَ قد طال فيما بينهما.

وقيل: جوابُ القسمِ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ لأنَّ المعنى: قد أتاك[٢].

وقيل: الجوابُ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ على تقدير: لَيوم ترجُف، فحذف اللام[٣].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرُه: يومَ ترجُف الراجفةُ وتَتْبَعها الرادفةُ والنازعاتِ غرقاً[٤].

وقال السِّجِسْتانيُّ: يجوزُ أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعاتِ. ابن الأنباريِّ: وهذا خطأٌ؛ لأنَّ الفاء لا يُفتحُ بها الكلام، والأوّلُ الوَجْهُ.

وقيل: إنَّما وقع القسمُ على أنَّ قلوبَ أهل النار تجفُّ، وأبصارهم تخشعُ،

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠-٢٣١ .

(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٠ وقال: ليس بشيء.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ .

فانتصابُ «يومَ ترجُف الراجفة» على هذا المعنى، ولكن لم يقع عليه. قال الزجّاج[١]: أي: قلوبٌ واجفةٌ يومَ تَرْجُف. وقيل: انتَصَبَ بإضمارِ: اذْكُر.

و«ترجُف» أي: تَضْطَرِبُ. و«الراجفة» أي: المُضطَرِبة، كذا قال عبد الرحمن بن زيد؛ قال: هي الأرضُ، والرادِفةُ: الساعة[٢].

مجاهد: الراجفةُ: الزلزلة، ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ الصيْحة.

وعنه أيضاً وابن عباس والحسن وقتادة: هما الصيحتان. أي: النفختان. أمّا الأُولى فتُمِيتُ كلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى، وأمّا الثانيةُ فتُحيي كلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى[٣]. وجاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «بينهما أربعون سنة»[٤].

وقال مجاهد أيضاً: الرادفةُ حين تنشقُّ السماء، وتُحملُ الأرضُ والجبال فتدَكُّ دكَّةً واحدة، وذلك بعد الزلزلة[٥].

وقيل: الراجفةُ تحرِّكُ الأرض، والرادفةُ: زلزلةٌ أخرى تُفني الأرضين. فالله أعلم. وقد مضى في آخرِ «النمل» ما فيه كفايةٌ في النفخ في الصور[٦].

وأصلُ الرجفةِ الحركة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ [المزمل: ١٤] وليست الرجفةُ هاهنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجَف الرعدُ يرجُف رَجْفاً ورَجيفاً، أي: أَظْهَر الصوتَ والحركة، ومنه سمِّيت الأراجيفُ؛ لاضطراب الأصوات بها، وإفاضةِ الناس فيها؛ قال:

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٧٨.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥-٦٦ عن ابن عباس والحسن وقتادة.

(٤) سلف ١٦/ ٢١٨.

(٥) أخرجه الطبري بنحوه ٢٤/ ٦٧.

(٦) ١٦: ٢١٨ فما بعد.

أبِـالأَراجِيـفِ يـا ابـنَ الـلـؤمِ تُـوعِـدنِـي   وفي الأَرَاجيفِ خِلتُ اللؤمَ والخوَرَا(١)

وعن أُبيّ بن كعبٍ: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ربعُ الليلِ قام ثم قال: «يا أيها الناسُ، اذكُروا الله، جاءتِ الرّاجِفةُ تَتبُعها الرَّادِفةُ، جاء الموتُ بما فيه»(٢).

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: خائفةٌ وَجِلَةٌ؛ قاله ابنُ عباس، وعليه عامَّةُ المفسِّرين(٣). وقال السُّدِّيُّ: زائلةٌ عن أماكنها، نظيرهُ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر:١٨](٤). وقال المؤرِّج: قلقة مُستوفِزة، مُرْتكِضَةٌ غيرُ ساكنة(٥). وقال المبرد: مضطربةٌ. والمعنى متقارب.

والمرادُ قلوبُ الكفارِ؛ يقال: وجَفَ القلبُ يجِفُ وجِيفاً: إذا خَفَقَ، كما يقال: وجَب يَجِب وَجيباً، ومنه: وَجيفُ الفرسِ والناقةِ في العَدْو، والإيجافُ: حَملُ الدابّةِ على السَّيرِ السريع، قال:

بُـدِّلْـنَ بـعـد جِـرَّةٍ صَـرِيـفَـا   وبـعـد طـولِ الـنَّـفَـسِ الـوجِـيـفـا(٦)

و«قلوبٌ» رفع بالابتداء، و«واجِفةٌ» صفتُها، و﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ خبرُها، مثل قوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة:٢٢١] ومعنى «خاشِعة»: مُنْكَسِرة ذليلة من هَوْلِ ما ترى، نظيره: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم:٤٣](٧). والمعنى: أبصارُ

---

(١) ١٧/ ٢٣٤.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١، وأخرجه بنحوه أحمد (٢١٢٤١)، والترمذي (٢٤٥٧).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٣.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ٣٤، وقوله: مرتكضة، أي: مضطربة، في القاموس (ركض): ارتكض: اضطرب.

(٦) ذكرهما بهذا اللفظ الطبري ١٧/ ٥١٩ ضمن خبر عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقائلهما لبيد، وهما في ديوانه ص٣٥١ برواية:

بـدِّلـن بـعـد الـنَّـفَـش الـوجـيـفـا   وبـعـد طـول الـخـبـرة الـصـريـفـا

الجرة: ما يفيض به البعير فيأكله ثانية، واللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت علفه. والصريف: صرير ناب البعير، القاموس (جرر) و(صرف).

(٧) الكشاف ٤/ ٢٠٢

أصحابِها، فحذف المضاف.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: يقولُ هؤلاء المكذِّبون المنكِرون للبعث، إذا قيل لهم: إنكم تُبعثون، قالوا مُنكِرين متعجِّبين: أنردُّ بعد موتنا إلى أولِ الأمر، فنعودَ أحياءً كما كنَّا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩] يقال: رجع فلانٌ في حافِرته، وعلى حافرته، أي: رجع مِن حيثُ جاء؛ قاله قتادة[(١)].

وأنشد ابن الأعرابيّ:

أَحَافِرةً على صَلَعٍ وشَيبٍ مَعَاذَ اللهِ مِن سَفَهٍ وعارِ[(٢)]

يقول: أأَرْجِعُ إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغَزَل والصِّبا بعد أن شِبْتُ وصَلِعت! ويقال: رجع على حافرته، أي: الطَّريقِ الذي جاء منه. وقولُهم في المثل: النقدُ عند الحافرة. قال يعقوب: أي عند أوَّلِ كلمة. ويقال: التقى القومُ فاقتتلوا عند الحافرة، أي: عند أولِ ما التقَوْا[(٣)].

وقيل: الحافرةُ: العاجلة، أي: أئنَّا لمردودون إلى الدنيا فنَصِيرَ أحياءً كما كنَّا؟ قال الشاعر:

آلَيْتُ لا أنساكُمُ فاعلَمُوا حَتى يُردَّ الناسُ في الحافِرهْ[(٤)]

وقيل: الحافرة: الأرضُ التي تُحفَر فيها قبورُهم، فهي بمعنى المحفورة، كقوله

(١) بنحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٧١ .

(٢) أدب الكاتب ص٤١٥، وإصلاح المنطق ص٣٢٧ ، وأمالي القالي ١/ ٢٧ ، والصحاح (حفر). قال البَطَلْيَوْسي في الاقتضاب ص٣٩٤ : هذا البيت لا أعلم قائله. اهـ. ونصب حافرة على أنه اسم في معنى المصدر أقيم مقامه، والتقدير: أرُجوعاً إلى أول أمري، يريد: أأرجع رجوعاً، فحذف الفعل واكتفى بمصدره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٦٧ .

(٣) الصحاح (حفر) وقول يعقوب (وهو ابن السكيت) في إصلاح المنطق ص٣٢٧ . وقولهم: النقد عند الحافرة، هو لما يباع نقداً، وأصله من بيع الفرس؛ كان يقال: لا يزول حافره حتى ينقد ثمنه. مفردات الراغب (حفر)، وعمدة الحفاظ ١/ ٦٩٥ .

(٤) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٠ ، والسمين في الدر المصون ١٠/ ٦٧١ .

تعالى: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. والمعنى: أئنا لمردودون في قبورنا أحياء. قاله مجاهدٌ والخليلُ والفرَّاء[(١)].

وقيل: سمِّيت الأرضُ الحافرة؛ لأنَّها مستَقَرُّ الحوافر، كما سمِّيت القدمُ أرضاً؛ لأنها على الأرض. والمعنى: أئنَّا لراجِعون بعد الموت إلى الأرض فنمشي على أقدامنا.

وقال ابن زيد: الحافرة: النار، وقرأ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[(٢)]. وقال مقاتلٌ وزيد بن أسلم: هي اسمٌ من أسماء النار.

وقال ابن عباس: الحافِرة في كلام العرب: الدنيا[(٣)].

وقرأ أبو حَيوةَ: «الحَفِرة» بغير ألف[(٤)]، مقصورٌ من الحافر، وقيل: الحفِرة: الأرضُ المُنتِنةُ بأجسادِ مَوْتاها، من قولهم: حَفِرتْ أسنانُه، إذا ركبها الوسخُ من ظاهرها وباطنها[(٥)]. يقال: في أسنانه حَفْر، وقد حَفَرت تحفِر حَفْراً، مثل كَسَر يَكسِر كسْراً، إذا فَسَدتْ أصولُها. وبنو أَسدٍ يقولون: في أسنانه حَفَرٌ ـ بالتحريك ـ وقد حَفِرت، مثال: تعِبَ تَعَباً، وهي أردأُ اللغتين؛ قاله في «الصحاح»[(٦)].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي: بالية متفتِّتةً. يقال: نَخِرَ العظمُ بالكسر، أي: بَلِيَ وتَفتَّتَ؛ يقال: عظام نخِرة. وكذا قرأ الجمهورُ من أهلِ المدينة ومكةَ والشام والبصرة[(٧)]، واختاره أبو عُبيد؛ لأنَّ الآثار التي تُذكَر فيها العظام، نظَرْنا فيها

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢، وذكره عن مجاهد والخليل ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢، وأخرجه بنحوه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٧١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١-٧٢.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ٢٤/ ٧٠ عن ابن عباس ﷺ، قال: الحافرة: الحياة.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحتسب ٢/ ٣٥٠.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٠.

(٦) مادة (حفر).

(٧) قرأ بها من السبعة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص. السبعة ص٦٧٠، والتيسير ص٢١٩.

فرأينا نخِرة لا ناخرة.

وقرأ أبو عمرو وابنُه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر: «ناخِرةً» بألفٍ[(١)]، واختاره الفرَّاء والطبريُّ وأبو معاذٍ النحويُّ؛ لِوفاق رؤوسِ الآي[(٢)]. وفي «الصحاح»: والناخِرُ من العظام: الذي تدخلُ الريحُ فيه ثم تخرج منه ولها نَخِير. ويقال: ما بها ناخِرٌ، أي: ما بها أحدٌ. حكاه يعقوبُ عن الباهليِّ[(٣)]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الناخِرةُ: التي لم تنخر بعد، أي: لم تَبْلَ، ولابدَّ أن تنخر[(٤)]. وقيل الناخرة: المُجوَّفة[(٥)].

وقيل: هما لغتان بمعنى، كذلك تقول العرب: نَخِرَ الشيءُ فهو نُخِرٌ وناخِر، كقولهم: طَمِعَ فهو طَمِعٌ وطامِع، وحَذِرٌ وحاذِر، وبَخِلٌ وباخِل، وفَرِه وفارِه[(٦)]؛ قال الشاعر:

يظَلُّ بها الشيخُ الذي كان بادِناً ... يَدِبُّ على عُوْجٍ له نَخِراتِ[(٧)]

عُوج: يعني قوائم.

وفي بعض التفسير: ناخِرة بالألف: بالِية، ونَخِرة: تَنخُرُ فيها الريح[(٨)]، أي تمرُّ

---

(١) السبعة ص٦٧٠، والتيسير ص٢١٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢، دون ذكر أبي عمرو وابنه، والمشهور عن أبي عمرو: «نخرة»، كما في التعليق السابق.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٢.

(٣) الصحاح (نخر).

(٤) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢ عن بعض المفسرين أنه قال: النخرة: البالية، والناخرة: العظم المجوف الذي تمر فيه الريح فينخر.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣١-٢٣٢، والكشاف ٤/ ٢١٣. قال الزمخشري: وفَعِلٌ أبلغ من فاعِل.

(٧) البيت للحطيئة، وهو في شرح ديوانه برواية:

فظل به الشيخ الذي كان فانياً ... يَدِفُّ على عوج له نخرات

قال الشارح: يَدِفُّ: كأنه يسرع ويمشي وفيه إبطاء لكبره، والعوج: أراد قوائمه قد اعوَجَّتْ من الكبر.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٩٦.

فيها، على عَكسِ الأولِ؛ قال:

مِن بعدِ ما صِرْتَ عِظاماً ناخِرة[١]

وقال بعضُهم: الناخِرةُ: التي أُكِلتْ أطرافُها وبقيتْ أوساطُها. والنَّخِرةُ: التي فَسَدتْ كلُّها.

قال مجاهد: نَخِرة، أي: مَرْفوتة[٢]، كما قال تعالى: ﴿عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء:٩٨] ونُخْرةُ الريحِ بالضم: شدَّةُ هُبوبِها. والنُّخْرةُ أيضاً والنُّخَرةُ مثال الهُمَزةِ: مقدَّمُ أنفِ الفرسِ والحمارِ والخنزير؛ يقال: هشَّم نُخْرَته، أي: أنفه[٣].

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: رَجعةٌ خائبة، كاذبة باطلة، أي: ليست كائنةً؛ قاله الحسن وغيره[٤]. الربيع بن أنس: خاسِرةٌ على مَن كذَّب بها. وقيل: أي: هي كَرَّةُ خُسْران. والمعنى: أهلُها خاسرون؛ كما يقال: تجارةٌ رابِحةٌ، أي: يَرْبَحُ صاحبها. ولا شيءَ أخسَرُ من كَرَّةٍ تقتضي المَصِيرَ إلى النار.

وقال قتادةُ ومحمد بن كعب: أي: لئن رَجَعْنا أحياءً بعد الموتِ لنحشَرَنَّ بالنار[٥]. وإنَّما قالوا هذا لأنَّهم أُوْعِدوا بالنار.

والكَرُّ: الرجوع؛ يقال: كَرَّهُ، وكَرَّ بنفسه، يتعدَّى ولا يتعدَّى. والكَرَّةُ المَرَّة، والجمعُ: الكَرَّات[٦].

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ذَكَر جلَّ ثناؤه سهولةَ البعثِ عليه فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ

---

(١) سيأتي قريباً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣ .

(٣) الصحاح (نخر).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣ عن قتادة بلفظ: رجعة خاسرة.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٦ ، وفيه لنخسرن، بدل: لنحشرن.

(٦) الصحاح (كرر).

﴿وَٰحِدَةٌ﴾. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: نفخةٌ واحدة[١] ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: الخلائقُ أجمعون ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: على وَجْهِ الأرض، بَعْدَ ما كانوا في بطنها. قال الفرَّاء: سُمِّيتْ بهذا الاسم؛ لأنَّ فيها نَومَ الحيوانِ وسَهَرَهم[٢]. والعربُ تُسمِّي الفَلاةَ ووَجْهَ الأرضِ: ساهِرة، بمعنى: ذات سَهَرٍ؛ لأنَّه يُسهَرُ فيها خوفاً منها[٣]، فَوصَفَها بصِفَةِ ما فيها. واستدلَّ ابنُ عباسٍ والمفسِّرون بقولِ أمية بنِ أبي الصَّلْتِ:

وفيها لَحْمُ ساهِرةٍ وبحرٍ   وما فاهُوا به لَهُمُ مُقِيمُ[٤]

وقال آخَرُ يومَ ذي قارٍ لفرسه:

أَقْدِمْ مَحَاجِ إنَّها الأساوِرَهْ   ولا يَهُولَنَّكَ رِجلٌ نادِرَهْ
فإنَّما قَصرُكَ تُربُ الساهِرهْ   ثم تعودُ بعدَها في الحافِرهْ
مِن بعدِ ما صِرتَ عِظاماً ناخِرَهْ[٥]

وفي «الصحاح»: ويقال: السَّاهور: ظِلُّ الساهِرة، وهي وجهُ الأرض. ومنه قولُه تعالى: «فإذا هُمْ بالساهِرةِ»، قال أبو كبير الهذليُّ:

يَرتَدْنَ ساهِرةً كأنَّ جَمِيمَها   وعَمِيمَها أسدافُ ليلٍ مُظلِمِ[٦]

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٤ عن ابن زيد، وذكر الماوردي ٦/ ١٩٦ عن الربيع بن أنس، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ .

(٣) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٣٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٥ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٤-٧٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦ والبيت في ديوان أمية ص١٢١ . قوله: فاهوا، قال أبو عبيدة: أي تكلموا.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦ . وذكرها القالي في أماليه ١/ ٢٦ ، وابن دريد في الجمهرة ٢/ ٢١٥ ، على أنها قيلت في القادسية، مع اختلاف يسير فيها. ونسبت في سمط اللآلي ١/ ١٢٣-١٢٤ للحارث بن سمي بن رؤاس الهمداني. وقال البكري: وكان قد ضُربت رجله فَنَدرتْ، أي: بانت، وقوله: فإنما قَصْرُك، أي: قُصَارُك.

(٦) الصحاح (سهر)، والبيت في شرح ديوان الهذليين ٣/ ١٠٩٠ . قال شارح الديوان: الجميم: النبت الذي قد نبت وارتفع قليلاً ولم يتم كل التمام، والعميم: المكتهل التام من النَّبت. ا هـ. والأسداف جمع سَدَف بالتحريك، وهو ظلمة الليل. اللسان (سدف).

ويقال: الساهور: كالغِلافِ للقمر يَدْخُلُ فيه إذا كُسِف، وأنشدوا قولَ أميةَ بنِ أبي الصَّلْت:

قَـمـرٌ وسـاهـورٌ يُـسَـلُّ ويُـغْـمَـدُ[١]

وأنشدوا لآخَر في وَصْفِ امرأةٍ:

كـأنَّـهـا عِـرْقُ سـامٍ عـنـد ضـارِبِـهِ أو شُقَّةٌ خرجَتْ مِن جَوْفِ ساهورِ[٢]

يريد شُقَّةَ القمر.

وقيل: الساهرة: هي الأرضُ البيضاء.

ورَوى الضَّحاك عن ابن عباس قال: أرضٌ من فِضَّةٍ لم يُعْصَ الله جلَّ ثناؤه عليها قطُّ، خلقَها حينئذٍ.

وقيل: أرضٌ جدَّدها الله يوم القيامة. وقيل: الساهرةُ اسمُ الأرضِ السابعةِ يأتي بها الله تعالى فيحاسِبُ عليها الخلائق، وذلك حين تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض.

وقال الثوريُّ: الساهرة: أرضُ الشام[٣]. وهب بنُ منبه: جبلُ بيتِ المَقْدِس. عثمان بنُ أبي العاتِكَةِ: إنه اسمُ مكانٍ من الأرض بعَيْنه بالشام، وهو الصُّقْعُ الذي بين جبل أرِيحاء وجبلِ حسَّان يَمدُّه الله كيف يشاء[٤].

قتادة: هي جهنم[٥]، أي: فإذا هؤلاء الكفارُ في جهنَّم. وإنَّما قيل لها: ساهرة؛

(١) ديوان أمية ص٤٩ ، والصحاح (سهر)، والخزانة ١/ ٢٤٩ ، وصدره: لا نقص فيه غير أن خبيئه.

(٢) تهذيب اللغة ٦/ ١٢٠ ، وأساس البلاغة (سهر)، واللسان (سهر). وصدره في تهذيب اللغة وأساس البلاغة: كأنها بُهْتةٌ ترعى بأقرية. وفي اللسان: أو فلقة، بدل: أو شقة. والسام: عروق الذهب والفضة، واحدتها سامَة. والبهتة: البقرة. اللسان (سهر) و(سوم).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٤ ، ووقع في إعراب القرآن: أرض بالشام.

(٤) النكت والعيون ٦/١٩٦-١٩٧ ، وأخرج القولين الطبري ٢٤/ ٧٧-٧٨ . وحسان: قرية بين دير العاقول وواسط. معجم البلدان ٢/ ٢٥٨ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٨ .

لأنَّهم لا ينامون عليها حينئذٍ.

وقيل: الساهرة: بمعنى الصحراء على شفير جهنم، أي: يُوقَفون بأرض القيامة، فيدومُ السَّهرُ حينئذ.

ويقال: السَّاهرة: الأرضُ البيضاءُ المستويةُ، سمِّيتْ بذلك لأنَّ السَّراب يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرةٌ: جاريةُ الماء، وفي ضدِّها: نائمة؛ قال الأشعثُ بنُ قيس:

وساهرة يُضْحي السَّرابُ مُجَلِّلاً لأقطارِها قد جئْتُها مُتلَثِّماً

أو لأنَّ سالِكَها لا ينامُ خَوفَ الهَلَكة[1].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي: قد جاءك وبَلَغكَ حديثُ موسى، وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ. أي: إنَّ فرعون كان أقوى من كفَّار عَصْرِك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء. وقيل: «هل» بمعنى «ما»، أي: ما أتاك، ولكنْ أُخْبِرْتَ به، فإنَّ فيه عِبرةً لمن يخشَى. وقد مضى من خَبَرِ موسى وفرعونَ في غيرِ موضعٍ ما فيه كفاية.

وفي «طُوى» ثلاثُ قراءاتٍ: قرأ ابنُ مُحيصِنٍ وابنُ عامرٍ والكوفيون: «طُوًى» منوَّناً، واختاره أبو عبيد لخفَّةِ الاسم. الباقون بغير تنوين[2]؛ لأنَّه معدولٌ، مثل: عُمر

---

(١) الكلام مع البيت في الكشاف ٤/٢١٣.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو من السبعة. السبعة ص٦٧١، والتيسر ص١٥٠.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: وأُرْشِدَكَ إلى طاعةِ ربِّك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: تخافه وتَتَّقيه.

وقرأ نافع وابن كثير: «تَزَّكَّى» بتشديدِ الزاي، على إدغامِ التاء في الزاي، لأنَّ أصلها: تتزكَّى. الباقون: «تَزَكَّى» بتخفيفِ الزاي، على معنَى طَرْحِ التاء[١]. وقال أبو عمرو: «تَزَّكَّى» بالتشديد [تَتَصَدَّق بـ][٢] الصدقة، و«تَزَكَّى»: تكون زَكيًّا مؤمناً، وإنَّما دعا فرعونَ ليكون زكيًّا مؤمناً. قال: فلهذا اختَرْنا التخفيف.

وقال صخر بنُ جُوَيرية: لمَّا بعث الله موسى إلى فرعون قال له: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ولن يَفعَلَ. فقال: يا رب، وكيف أذهبُ إليه وقد علمتَ أنه لا يفعل؟ فأوْحَى الله إليه: أن امضِ إلى ما أمرْتُكَ به، فإنَّ في السماء اثني عَشَرَ ألفَ مَلَكٍ يطلبون علمَ القَدر، فلم يَبْلُغوه ولا يُدْرِكوه[٣].

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ أي: العلامةَ العُظمَى وهي المعجزة. وقيل: العصا. وقيل: اليد البيضاء تَبرُقُ كالشمس. وروى الضحَّاك عن ابن عباس: «الآية الكبرى» قال: العصا. الحسن: يده وعصاه[٤]. وقيل: فَلْق البحر. وقيل: الآية: إشارةٌ إلى جميع آياته ومعجزاته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ أي: كذَّب نبيَّ الله موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ أي: عصى ربَّه عزَّ وجلَّ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي: ولَّى مُدبِراً مُعْرِضاً عن الإيمان، «يسعَى» أي: يعملُ بالفساد في الأرض. وقيل: يعملُ في نكاية موسى. وقيل: «أدبر يسعَى» هارباً من الحية. ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: جَمعَ أصحابه ليمنعوه منها. وقيل: جَمعَ جنودَه للقتال والمُحاربة، والسَّحَرةَ للمعارَضَة. وقيل: حشر الناس للحضور. ﴿فَنَادَىٰ﴾ أي: قال لهم بصوتٍ عالٍ ﴿فَقَالَ

---

(١) السبعة ص٦٧١، والتيسير ص٢١٩.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من تفسير الطبري ٢٤/ ٨١، والكلام فيه بنحوه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٦. وصخر بن جويرية هو الإمام المحدث أبو نافع التميمي مولاهم، وقيل: مولى بني هلال، البصري، توفي سنة بضع وستين ومئة. السير ٧/ ٤١٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨٢.

وقُثَم. قال الفرَّاء[١]: طُوَى: وادٍ بين المدينةِ ومصرَ. قال: وهو معدولٌ عن طاوٍ، كما عُدِلَ عُمَرُ عن عامر.

وقرأ الحسنُ وعِكرمةُ: «طِوًى» بكَسْرِ الطَّاء، ورُوي عن أبي عمرو. على معنى: المُقَدَّس مرةً بعد مرة؛ قاله الزجَّاج وأنْشَد:

أعَاذِل إنَّ اللومَ في غيرِ كُنْهِهِ   عليَّ طِوًى مِن غَيِّكِ المتردِّدِ[٢]

أي: هو لومٌ مُكرَّرٌ عليَّ. وقيل: ضمُّ الطَّاءِ وكَسْرُها لغتان، وقد مضى في «طه» القولُ فيه[٣].

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ناداه ربُّه، فحذف؛ لأنَّ النداء قولٌ، فكأنه: قال له ربُّه: «اذْهَبْ إلى فِرعونَ». ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: جاوَزَ القَدْرَ في العِصْيان.

ورُوي عن الحسن قال: كان فرعون عِلجًا من هَمْدان[٤]. وعن مجاهدٍ قال: كان من أهلِ إصْطَخْر[٥]. وعن الحسن أيضاً قال: من أهلِ أصبهان، يقال له: ذو ظفر، طولُه أربعةُ أشبار.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تُسْلِم فتَطْهُر من الذنوب. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هل لك أنْ تشْهَد أن لا إلهَ إلاَّ الله[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٩ ، ونسبه الزجاج لطرفة وكذلك الفارسي في الحجة ٦/ ٣٧٢ ، وليس في ديوانه. ونسب لعدي بن زيد، كما في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥ ، ومعجم البلدان ٤/ ٤٥ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧٤ ، واللسان (طوي). والقراءة بكسر الطاء في القراءات الشاذة ص١٦٨ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٨٠ .

(٣) ١٤/ ٢٥ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٣/ ١٠٥ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٨٨ .

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٨١ عن عكرمة.

أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: لا ربَّ لكم فوقي.

ويُروَى: أنَّ إبليسَ تَصَوَّر لفرعون في صورة الإنس بمصرَ في الحمام، فأنكره فرعون. فقال له إبليس: ويْحك! أمَا تَعْرفُني؟ قال: لا. قال: وكيف وأنت خلقتني؟ ألَسْتَ القائلَ: أنا ربُّكم الأعلى! ذكره الثعلبيُّ في كتاب «العرائس»[(١)].

وقال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها، فقال: أنا ربُّ أصنامِكم. وقيل: أراد القادةَ والسادةَ، هو ربُّهم، وأولئك هم أربابُ السَّفِلة.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ: فنادى فحشر[(٢)].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أي: نكالَ قولِه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨] وقولِه بَعْدُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ قاله ابن عباس ومجاهدٌ وعِكرمة[(٣)]. وكان بين الكلمتين أربعون سنة؛ قاله ابن عباس[(٤)]. والمعنى: أمْهَلَه في الأُولى، ثم أخَذَه في الآخرة، فعذَّبه بكلِمتَيْه.

وقيل: نكالُ الأُولى: هو أن أغرقَه، ونكالُ الآخرة: العذابُ في الآخرة. وقاله قتادةُ وغيرُه[(٥)].

وقال مجاهدٌ: هو عذابُ أولِ عمرِه وآخِرِه[(٦)].

وقيل: الآخرةُ قولُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ والأُولى تكذيبُه لموسى. عن قتادة أيضاً[(٧)].

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٨٤-٨٥ عن ابن عباس ومجاهد، وأخرجه عن عكرمة عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨٤ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٨ . وأخرجه الطبري أيضاً ٢٤/ ٨٦ عن مجاهد.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٨ ، والوسيط ٤/ ٤٢٠ .

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٨ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٨٧ ، وفيه: عمله، بدل: عمره.

(٧) ذكره الرازي ٣١/ ٤٣ دون نسبة.

و«نكالَ» منصوبٌ على المصدر المؤكِّدِ في قول الزجَّاج؛ لأنَّ معنى أخَذَه الله: نكَّل الله به[(١)]، فأخَرْجَ مكانَ مصدرٍ من معناه، لا من لَفْظِه. وقيل: نُصِبَ بنزْعِ حرفِ الصِّفَة، أي: فأخَذَه الله بنكال الآخرة، فلمَّا نُزِعَ الخافِضُ نُصِب. وقال الفرَّاء: أي: أخَذَه الله أخْذاً نكالاً[(٢)]، أي: للنكال.

والنكال: اسمٌ لما جُعِلَ نَكالاً للغير، أي: عقوبةً له حتى يَعْتَبِر به. يقال: نكَّلَ فلانٌ بفلان: إذا أثْخَنه عقوبةً. والكلمةُ من الامتناع، ومنه النُّكولُ عن اليمين، والنِّكْلُ: القيد. وقد مضى في سورة المزَّمل[(٣)]، والحمد لله. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتباراً وعِظَةً. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي: يخافُ الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

قولُه تعالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾: يريدُ أهلَ مكةَ، أي: أخَلْقُكم بعدَ الموتِ أشدُّ في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾، فَمَنْ قَدَر على السماء قَدَر على الإعادة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس: ٨١]، فمعنى الكلامِ التقريعُ والتوبيخُ.

ثم وَصَف السماءَ فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي: رَفَعها فوقكم كالبناء. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي: أعْلَى سَقْفَها في الهواء؛ يقال: سَمَكْتُ الشيءَ، أي: رفعته في الهواء، وسَمَكَ الشيءُ سُمُوكاً: ارتفع. وقال الفرَّاء: كلُّ شيءٍ حَمَل شيئاً من البناء وغيره فهو سَمْك. وبناءٌ مَسْمُوك، وسَنامٌ سامِكٌ تامك، أي: عالٍ، والمسموكات: السَّمَاوات. ويقال:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٨٠.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ وإعراب القرآن، للنحاس ٥/ ١٤٤ والعبارة فيهما: فأخذه الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى.

(٣) ٢١/ ٣٣٥ - ٣٣٦.

اسمُكْ في الرَّيْم، أي: اصْعَدْ في الدرجة[١].

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: خَلَقها خَلْقاً مستوياً، لا تَفاوُتَ فيه، ولا شُقوقَ، ولا فُطور. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعَلَه مُظْلماً؛ غَطَشَ الليلُ وأغْطَشَه الله، كقولك: ظَلِم وأظْلَمه الله. ويقال أيضاً: أغْطَشَ الليلُ بنَفْسِه، وأغْطَشَه الله، كما يقال: أظْلَم الليلُ، وأظْلَمه الله. والغَطَشُ والغَبَش: الظُّلْمةُ. ورجلٌ أغْطَشُ، أي: أعْمَى، أو شبيهٌ به، وقد غَطِشَ، والمرأةُ غَطشاءُ، ويقال: ليلةٌ غَطشاءُ، وليلٌ أغْطَشُ. وفلاةٌ غَطشَى: لا يُهتدَى لها؛ قال الأعشى:

وَيَهْمَاءَ بالليلِ غَطْشَى الفَلا ةِ يُؤْنِسُني صوتُ فَيَّادِها[٢]

وقال الأعشى أيضاً:

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِناً ناقتي وغامِرُهُمْ مُدْلَهِمٌّ غَطِشْ[٣]

يعني بغامرِهم: ليلَهم؛ لأنه غَمَرَهم بسواده.

وأضاف الليلَ إلى السماء لأنَّ الليل يكونُ بغروب الشمس، والشمسُ مضافٌ إلى السماء، ويقال: نجومُ الليلِ، لأنَّ ظهورها بالليل.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أبرزَ نهارَها وضوءَها وشمسها. وأضاف الضُّحى إلى السماء كما أضاف إليها الليل[٤]؛ لأنَّ فيهاسببَ الظَّلام والضياءِ، بغُروب[٥]

---

(١) الصحاح (سمك). وذكر القالي في الأمالي ١/ ١٦٠ عن أبي عمرو بن العلاء قال: أتيت دار قوم باليمن أسأل عن رجل، فقال لي رجل منهم: اسمُك في الرَّيم، أي: اعل في الدرجة.

(٢) ديوان الأعشى ص١٢٣ ، وتهذيب اللغة ١٦/ ١٦١ ، والصحاح (غطش)، واللسان (غطش) وفيه: الأرض اليهماء: التي لا يُهتَدى فيها لطريق، والغطش مثله. وقوله: فيادها، هو ذَكَر البوم. القاموس (فيد).

(٣) لم نقف عليه في ديوان الأعشى، وهو في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ١/ ١٢١ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٤ ووقع في الجمهرة: وغامرنا، وفي المحرر: وليلهم. قوله: موهناً، هو نحوٌ من نصف الليل، أو بعد ساعة منه. القاموس (وهن).

(٤) في النسخ الخطية: كما أضاف الظلمة.

(٥) في (م): وهو غروب.

الشمسِ وطُلوعها.

و﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بَسَطَها[(١)]. وهذا يشيرُ إلى كونِ الأرضِ بعدَ السماء. وقد مضى القولُ فيه في أول «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا * ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية:٢٩] مستوفًى. والعربُ تقول: دَحَوْتُ الشيءَ أدْحُوه دَحْواً: إذا بَسَطْته. ويقال لعشِّ النعامة: أُدحِيٌّ؛ لأنَّه مبسوطٌ على وجه الأرض[(٢)]. وقال أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ:

وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذ دَحاها فَهُمْ قُطَّانُها حتى التَّنادي[(٣)]

وأنشد المبرِّد:

دَحَاها فلمَّا رآها اسْتَوتْ على الماءِ أرْسَى عليها الجبالا[(٤)]

وقيل: دحاها: سوَّاها، ومنه قولُ زيد بنِ عمرو:

وأسْلَمتُ وجهي لِمَن أسْلَمَتْ له الأرضُ تحمِل صَخْراً ثِقالا
دحاها فلمَّا اسْتَوتْ شَدَّها بأيْدٍ وأرْسَى عليه الجبالا[(٥)]

وعن ابن عباس: خَلَقَ الله الكعبةَ ووَضَعَها على الماء على أربعةِ أركان قبل أن يخلُقَ الدنيا بألْفَيْ عامٍ، ثم دُحِيت الأرضُ من تحت البيت[(٦)].

وذَكَر بعضُ أهلِ العلم: أنَّ «بعد» في موضع «مع» كأنه قال: والأرضَ مع ذلك

---

(١) أخرج الطبري ٢٤/ ٩٥ هذا القول على قتادة والسدي وسفيان.

(٢) في الصحاح (دحا): وأُدْحِيُّها (يعني النعامة): موضعها الذي تفرِّخ فيه؛ لأنها تَدْحوه برجلها ثم تبيض فيه، وليس للنعام عُشٌّ. ومثله في غريب الحديث للخطابي ٣/ ٨١ ، واللسان (دحا).

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٩ ، وسلف ١٨/ ٣٥٣ برواية: سكانها، بدل: قطانها.

(٤) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل، وهو بهذه الرواية في سيرة ابن هشام ١/ ٢٣١ ، وسيكرره المصنف بنحوه مع بيت آخر من القصيدة نفسها.

(٥) الأغاني ٣/ ١٢٨ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٩ ، واللفظ منه، ووقع في الأغاني: سواء، بدل: بأيد.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٩٣ .

دحاها، كما قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] ومنه قولُهم: أنت أحمقُ وأنت بعد هذا سَيِّئُ الخُلُقِ(١)؛ قال الشاعر:

فقلتُ لها فِيئي(٢) إليكِ فإنَّني ... حَرَامٌ وإنِّي بعدَ ذاكَ لَبيبُ(٣)

أي: مع ذلك لبيب.

وقيل: «بعدَ» بمعنى: قَبْلَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي: من قَبْلِ الفرقان؛ قال أبو خِرَاش الهذلي:

حَمِدْتُ إلهي بَعْدَ عروةَ إذ نجا ... خِراشٌ وبعضُ الشرِّ أهْوَنُ من بَعْضِ(٤)

وزَعَموا أنَّ خِراشاً نجا قبلَ عروة.

وقيل: «دحاها» حَرَثَها وشقَّها. قاله ابن زيد(٥). وقيل: «دحاها»: مهَّدها للأقْوات. والمعنى مُتَقارِب.

وقراءةُ العامة: «والأرضَ» بالنصب، أي: دحا الأرض. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون: «والأرضُ» بالرفع(٦) على الابتداء؛ لرجوع الهاء.

ويقال: دحا يَدْحُو دَحْواً، ودَحَى يَدحَى دَحْياً، كقولهم: طَغَى يَطْغَى ويَطْغُو،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٣، والأضداد لابن الأنباري ص١١٠ . وأخرج الطبري هذا القول عن مجاهد والسدي.

(٢) في (م): عني.

(٣) البيت للمضرَّب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى، كما في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٠، وأمالي القالي ٢/ ١٧١، والاقتضاب ص٤٧٥، وهو دون نسبة في أدب الكاتب ص٦١٥، والأضداد لابن الأنباري ص١١٠. قال البطليوسي: ويروى لشبل بن الصامت المرِّي، وقال في شرحه: معنى فيئي: ارجعي، والحرام: المُحْرِم. ولبيب هنا بمعنى مُلَبٍّ، وصف أن محبوبته لقيها وهو مُحرِمٌ مُلبٌّ فتورَّع عن الكلام معها.

(٤) الأضداد لابن الأنباري ص١٠٨، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٧ . قال الشارح: عروة أخوه، وخراش ابنه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٩٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٩ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٦٨ عن الحسن.

وطغِيَ يَطْغَى، ومحا يَمحو ويمْحى، ولحَى العود يَلْحَى ويَلْحو[(١)]، فَمَن قال: يدحو، قال: دَحَوْتُ، ومَن قال: يَدحَى، قال: دَحَيْتُ.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي: أخْرجَ من الأرض ﴿مَآءَهَا﴾ أي: العيونَ المتفجِّرةَ بالماء ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ أي: النباتَ الذي يُرعَى. وقال القُتَبيُّ[(٢)]: دلَّ بشيئين على جميع ما أخرَجه من الأرض قُوتاً ومتاعاً للأنام، من العُشْبِ والشَّجرِ والحَبِّ والتَّمرِ والعَصْفِ والحَطَبِ واللِّباسِ، والنارِ والملح؛ لأنَّ النار من العيدان، والمِلْحَ من الماء.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ قراءةُ العامَّةِ: «والجبالَ» بالنَّصب، أي: وأرْسَى الجِبالَ أرْساها، يعني: أثْبتَها فيها أوْتاداً لها. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم: «والجِبالُ» بالرفع على الابتداء[(٣)].

ويقال: هلاَّ أدْخَل حرفَ العطفِ على «أخرج». فيقال: إنه حالٌ بإضمارِ قد، كقوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠][(٤)].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أي: منفعةً لكم ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ من الإبل والبقر والغنم. و«متاعاً» نصب على المصدر من غيرِ اللَّفظ؛ لأنَّ معنى «أَخْرجَ منها ماءَها ومَرْعاها»: أمْتعَ بذلك[(٥)]. وقيل: نصب بإسقاطِ حرفِ الصِّفةِ، تقديرُه: لتتمتَّعوا به متاعاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الداهيةُ العُظْمَى، وهي النفخةُ الثانيةُ

---

(١) أي: قشره، في اللسان (لحا): لَحَوْتُ العود ألحوه وألحاه: إذا قشرته.

(٢) في تأويل مشكل القرآن ص٤ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٠ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢١٥ .

(٥) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٨١ .

التي يكونُ معها البعثُ؛ قاله ابن عباس في روايةِ الضحَّاكِ عنه، وهو قولُ الحسن[(١)].

وعن ابن عباسٍ أيضاً والضحاك: أنَّها القيامة[(٢)]، سمِّيتْ بذلك لأنها تَطمُّ على كلِّ شيءٍ، فتعمُّ ما سواها لِعظَمِ هَوْلها، أي: تَغْلبهُ. وفي أمثالهم: جرى الوادي فطَمَّ على القَرِيِّ[(٣)].

المبرِّد: الطامَّةُ عند العرب: الداهيةُ التي لا تُستَطاع، وإنَّما أُخِذَتْ فيما أحْسبُ من قولهم: طمَّ الفرسُ طميماً: إذا استَفْرَغَ جهدَه في الجَرْي، وطمَّ الماء: إذا ملأ النهرَ كلَّه. غيره: مأخوذةٌ من طَمَّ السيلُ الرَّكيَّة، أي: دَفَنَها، والطَّمُّ: الدَّفْنُ والعُلُوّ[(٤)]. وقال القاسم بن الوليد الهمْدانيُّ: الطامَّةُ الكبرى حين يُساقُ أهلُ الجنةِ إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار. وهو معنى قولِ مجاهد[(٥)] وقال سفيان: هي الساعةُ التي يُسْلَم فيها أهلُ النارِ إلى الزَّبانية. أي: الداهيةُ التي طَمَّتْ وعَظُمَتْ؛ قال:

إنَّ بعضَ الحبِّ يُعمِي ويُصِمّ   وكذاك البغضُ أدهَى وأطَمّ[(٦)]

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: ما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: ظهرت ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ قال ابن عباس: يُكشَفُ عنها فيراها تَتلَظَّى كلُّ ذي بَصرٍ. وقيل: المرادُ الكافرُ؛ لأنه الذي يرى النارَ بما فيها من أصناف العذاب. وقيل: يراها المؤمنُ ليعرف قَدْرَ النعمةِ ويَصْلَى الكافرُ بالنار. وجوابُ «فإذا جاءتِ الطامَّةُ» محذوفٌ، أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ عن الحسن، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤ عن ابن عباس والحسن.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤ ، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٤/ ٩٧ .

(٣) جمهرة الأمثال ١/ ٣٠٠، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٩ ، والمستقصى ٢/ ٥١ . قال الزمخشري: القري: هو مستجمَعُ الماء الكثير، يضرب مثلاً في غلبةِ الرجل قرنَه. وقال العسكري: يضرب مثلاً للأمر العظيم، يجيءُ فيعم الصغير والكبير.

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ٤٩ ، والرَّكِيَّة: البئر. القاموس (ركو).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ ، وقول القاسم بن الوليد أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٥٨ ، والطبري ٢٤/ ٩٧ . والقاسم بن الوليد هو أبو عبد الرحمن الكوفي القاضي، روى عن المنهال بن عمرو وقتادة ومجاهد وغيرهم، توفي سنة (١٤١هـ). التهذيب ٣/ ٤٢٣ .

(٦) لم نقف عليه.

إذا جاءت الطامةُ، دخل أهلُ النارِ النارَ وأهلُ الجنةِ الجنةَ[(١)].

وقرأ مالك بن دينار: «وَبَرَزَتِ الجحِيمُ»[(٢)]. عِكرمةُ وغيرُه: «لِمن تَرى» بالتاء، أي: لمن تَراه الجحيم، أو لمن تَراه أنتَ يا محمد. والخطابُ له عليه الصلاة والسلام، والمرادُ به الناس[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تَجاوزَ الحدَّ في العِصيان. قيل: نزلت في النَّضر وأبيه[(٤)] الحارث، وهي عامةٌ في كلِّ كافرٍ آثَرَ الحياةَ الدنيا على الآخرة.

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: مَن اتَّخذ مِن طعامٍ واحدٍ ثلاثةَ ألوانٍ فقد طَغَى.

وروى جُوَيبر عن الضحَّاك قال: قال حذيفةُ: أخْوفُ ما أخافُ على هذه الأمَّةِ أنْ يُؤْثِروا ما يَرَوْن على ما يَعلَمون[(٥)].

ويُروَى أنه وُجِدَ في الكتب: إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: لا يُؤْثِرُ عبدٌ لي دنياهُ على آخرته، إلاَّ بَثَثْتُ عليه همومَه وضَيَّعْتُه، ثم لا أُبالي في أيِّها هَلَك.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: مأواه. والألفُ واللَّامُ بَدَلٌ من الهاء. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٥١، وذكر الرازي وجهاً آخر، وهو أن يكون الجواب: «فإن الجحيم هو المأوى»، قال: وكأنه جزاء مركب على شرطين، أي: إذا جاءت الطامة الكبرى، فمن جاء طاغياً، فإن الجحيم مأواه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥١.

(٤) في النسخ: وابنه، والمثبت من تفسير الرازي ٣١/ ٥١ وفيه: «طغى وأثر الحياة الدنيا» النضر وأبوه الحارث.

(٥) أخرجه هناد في الزهد (٩٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٨.

مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حَذِر مقامَه بين يدي ربِّه. وقال الربيع: مقامه يومَ الحساب[١]. وكان قتادةُ يقول: إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ مَقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفُه في الدنيا من الله عزَّ وجلَّ عند مُواقَعةِ الذَّنْبِ فيُقْلِع[٢]. نظيرُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: زَجَرها عن المعاصي والمَحارِم. وقال سهل: تَرْكُ الهوى مِفتاحُ الجنة؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾. قال عبد الله بن مسعود: أنتم في زمانٍ يقودُ الحقُّ الهوى، وسيأتي زمانٌ يقودُ الهَوَى الحقَّ، فنعوذُ بالله من ذلك الزمان. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: المنزل.

والآيتان نزلتا في مصعَب بن عُمير وأخيه عامر بنِ عمير، فروَى الضحَّاك عن ابن عباسٍ قال: أمَّا مَن طَغَى، فهو أخٌ لمصعب بنِ عمير أُسِر يومَ بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: مَن أنت؟ قال: أنا أخو مُصعَب بنِ عُمير، فلم يشدُّوه في الوَثاق، وأكرموه وبيَّتوه عندهم، فلمَّا أصبحوا حدَّثوا مصعَب بنَ عُمير حديثَه، فقال: ما هو لي بأخٍ، شُدُّوا أسيركم، فإنَّ أمَّه أكثرُ أهلِ البطحاءِ حُلِيّاً ومالاً. فأوثَقوه حتى بعثتْ أمُّه في فِدائه. «وأما من خاف مقامَ ربِّه» فمصعَب بنُ عمير، وَقَى رسولَ الله ﷺ بنفسه يومَ أُحُدٍ حين تَفرَّقَ الناس عنه، حتى نفذت المشاقصُ في جَوْفه ـ وهي السهامُ ـ فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ مُتشحِّطاً في دَمِه قال: «عندَ الله أحْتَسِبُكَ»، وقال لأصحابه: «لقد رأيتُه وعليه بُردانِ ما تُعرَفُ قيمتُها، وإنَّ شِراكَ نَعْلَيْه من ذَهب»[٣]. وقيل: إنَّ مصعب بنَ عمير قَتَل أخاه عامِراً يومَ بدر[٤].

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

(٢) أخرج قول قتادة وقول مجاهد الطبري ٢٢/ ٢٣٦-٢٣٧ .

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ مختصراً دون نسبة، وسلف ١٠/ ٧٦ خبر مصعب بن عمير مع أخيه عندما أُسر يوم بدر.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ ، إلا أنه ذكر أبا عزيز بدل عامر، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨١ عن هذا الخبر والذي قبله: لم أجده. اهـ. وينظر ما سلف ١٧/ ٣٠٧-٣٠٨ .

وعن ابن عباس أيضاً قال: نزلتْ هذه الآيةُ في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزوميّ، ومصعب بنِ عمير العَبدَريّ.

وقال السُّدِّيُّ: نزلتْ هذه الآيةُ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ في أبي بكرِ الصِّديقِ ﷺ، وذلك أنَّ أبا بكر كان له غلامٌ يأتيه بطعام، وكان يسأله: مِن أين أتيتَ بهذا؟ فأتاه يوماً بطعامٍ فلم يسأله وأكلَه، فقال له غلامُه: لِمَ لا تسألُني اليوم؟ فقال: نسيتُ، فمِنْ أين لك هذا الطعام؟ فقال: تَكَهَّنْتُ لقومٍ في الجاهلية فأعطَوْنيه. فتقايأه من ساعته وقال: يا ربِّ، ما بقي في العروق فأنت حَبَسْتَه، فنزلت: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[(١)].

وقال الكلبيُّ: نزلتْ في مَن همَّ بمعصية وقَدَر عليها في خلوة، ثم تركها مِن خوفِ الله. ونحوه عن ابن عباس[(٢)]. يعني مَن خاف عند المعصيةِ مَقامَه بين يدَي الله، فانتهى عنها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال ابن عباسٍ: سأل مُشركو مكةَ رسولَ الله ﷺ: متى تكون الساعةُ استهزاءً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ الآية[(٣)].

وقال عُروة بنُ الزبير في قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ لم يَزَل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[(٤)]. ومعنى «مُرْساها»، أي: قيامُها. قال الفرَّاء: رُسُوُّها: قيامُها، كرسوِّ السفينةِ[(٥)]. وقال أبو عبيدة[(٦)]: أي:

---

(١) الورع لأحمد ص٨٤، وحلية الأولياء ١/ ٣١، وليس فيهما ذكر نزول الآية.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٤.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، وقال الفراء: وليس قيامها كقيام القائم على رجله ونحوه، إنما هو كقولك: قام العدل، وقام الحق، أي: ظهر وثبت.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥.

مُنتَهاها، ومرسَى السفينةِ حيث تنتهي. وهو قولُ ابنِ عباس. الربيعُ بن أنس: متى زمانُها[١]. والمعنى متقارِبٌ. وقد مضى في «الأعراف» بيانُ ذلك[٢]. وعن الحسن أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ إلَّا بغَضبَةٍ يغضَبُها ربُّك»[٣].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: في أيِّ شيءٍ أنت يا محمدُ من ذِكرِ القيامةِ والسؤالِ عنها؟ وليس لك السؤالُ عنها. وهذا معنى ما رواه الزُّهريُّ عن عُروةَ بنِ الزُّبير قال: لم يزل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ؟ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[٤] أي: مُنتَهى عِلْمِها؛ فكأنه عليه الصلاة والسلامُ لمَّا أكثَروا عليه سأل الله أن يعرِّفه ذلك. فقيل له: لا تَسأَلْ، فلستَ في شيءٍ من ذلك.

ويجوزُ أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له، أي: فيم أنتَ من ذلك حتى يسألوك بيانَه، ولستَ ممَّن يَعلَمُه. رُوِي معناه عن ابن عباس[٥]. والذِّكرَى بمعنى الذِّكْرِ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي: مُنتهى عِلْمِها، فلا يُوجَدُ عند غيرِهِ، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: مخوِّفُ، وخَصَّ الإنذارَ بمَن يَخشى؛ لأنَّهم المنتفعون به، وإنْ كان مُنْذِراً لكلِّ مُكلَّفٍ، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١٢]. وقراءةُ العامَّةِ: «منذِرُ» بالإضافةِ غيرَ منوَّنٍ؛ طَلَبَ التخفيفِ، وإلَّا فأصلُه التنوين لأنَّه للمستقبل، وإنَّما لا ينوَّنُ في الماضي. قال

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

(٢) ٩/ ٤٠٥ .

(٣) أخرجه الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٧٩)، وهو من مراسيل الحسن، ويرويه عنه الحسن بن دينار، قال عنه ابن حبان: تركه وكيع وابن المبارك، فأما أحمد ويحيى فكانا يكذبانه. الميزان ١/ ٤٨٩ .

(٤) سلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

الفرَّاء: يجوزُ التنوينُ وتَرْكُه، كقوله تعالى: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٣] و«بالِغٌ أمْرَه» و﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال:١٨] و«موهِنٌ كيدَ الكافِرين»[(١)]، والتنوينُ هو الأصلُ، وبه قرأ أبو جعفر وشَيبةُ والأعرجُ وابنُ مُحيصنٍ وحُميدٌ، وعباسٌ عن أبي عمرو: «منذِرٌ» منوناً[(٢)]، وتكون [مَن][(٣)] في موضعِ نصب. والمعنى[(٤)]: إنَّما ينتفعُ بإنذارِكَ مَن يخشَى الساعة.

وقال أبو عليٍّ[(٥)]: يجوزُ أن تكون الإضافةُ للماضي، نحو: [هذا] ضاربُ زيدٍ أمسِ؛ لأنَّه قد فَعَل الإنذار.

والآيةُ ردٌّ على مَن قال: أحوالُ الآخرة غيرُ مَحْسوسةٍ، وإنَّما هي راحةُ الرُّوحِ أو تألُّمها من غير حِسٍّ.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني الكفارَ يَرَوْنَ الساعةَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: في دُنْياهُم. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي: قَدْرَ عشيةٍ ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أو قَدْرَ الضُّحا الذي يلي تلك العَشيَّةَ، والمرادُ تقليلُ مدَّةِ الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف:٣٥] ورَوَى الضحاك عن ابن عباس: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَها لم يلبثوا إلَّا يوماً واحداً.

وقيل: «لم يلبثوا» في قبورهم «إلَّا عشِيةً أو ضُحاها»، وذلك أنَّهم استَقصَروا مدَّة لَبثِهِم في القبور لِمَا عاينوا من الهول.

وقال الفرَّاء: يقولُ القائلُ: وهل للعشيةِ ضُحًا؟ وإنَّما الضُّحا لصَدرِ النَهارِ، ولكنْ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ : فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس.

(٢) النشر ٢/ ٣٩٨ عن أبي جعفر، ورواية عباس عن أبي عمرو في السبعة ص٦٧١، والمشهور عن أبي عمرو: «منذرُ» بالإضافة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) بعدها في (م): نصب، ولا معنى لها.

(٥) في الحجة ٦/ ٣٧٥، وما سيأتي بين حاصرتين.

أضيفَ الضُّحا إلى العشية ـ وهو اليومُ الذي يكونُ فيه ـ على عادةِ العرب؛ يقولون: آتيكَ الغَدَاة أو عشيَّتها، وآتيكَ العشيةَ أو غَدَاتَها، فتكونُ العشيةُ في معنى آخِرِ النهار، والغداةُ في معنى أوّلِ النهار؛ قال: وأنشدني بعضُ بني عقيل:

نحنُ صَبَحنا عامِراً في دارِها جُردًا تَعَادَى طَرَفَيْ نهارِها
عشِيَةَ الهلالِ أو سِرَارِها[1]

أراد: عشية الهلالِ، أو عشية سِرارِ العشيةِ، فهذا أشدّ[2] من: آتيكَ الغداةَ أو عَشِيَّها.

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠١، وزاد المسير ٩/ ٢٥، وليس عندهم إلا البيتان الأول والثالث، والأبيات الثلاثة في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٥، واللسان (سرر)، وذكر الأول والثاني صاحب اللسان (صبح) وقال: يريد أتيناها صباحاً بخيلٍ جُرْدٍ.

(٢) في مطبوع معاني القرآن للفراء: أَسَدُّ.

تفسير سورة النازعات

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾ .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وأبو صالح ، وأبو الضحى ، والسُّدى : ﴿ النَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بنى آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعُنف فتُغرق في نزعها ، و [منهم] [(١)] مَن تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلَّته من نشاط ، وهو قوله : ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾، قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ : هى أنفس الكفار ، تُنزَع ثم تُنشَط ، ثم تغرق فى النار . رواه ابن أبى حاتم .

وقال مجاهد : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الموت . وقال الحسن ، وقتادة : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ : هى النجوم .

وقال عَطَاءُ بنُ أبى رَباح فى قوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِطَاتِ ﴾ : هى القسىّ فى القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثرون .

وأما قوله : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ ، فقال ابن مسعود : هى الملائكة . ورُوى عن على ، ومجاهد ،وسعيد بن جُبَير ، وأبى صالح مثلُ ذلك .

وعن مجاهد : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء بن أبى رباح : هى السفن .

وقوله : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ : رُوى عن على ، ومسروق ، ومجاهد ،وأبى صالح ، والحسن البصرى : يعنى الملائكة ؛ قال الحسن : سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء : هى الخيل فى سبيل الله .

---

(١) زيادة من م.

وقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، قال على ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو صالح ، والحسن ، وقتادة، والربيع بن أنس ، والسدى : هى الملائكة ـ زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض. يعنى : بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا فى هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد فى شىء من ذلك ، إلا أنه حكى فى ﴿ الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ،وغير واحد .

وعن مجاهد : أما الأولى ـ وهى قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ـ فكقوله جلت عظمته : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمل: ١٤] ، والثانية ـ وهى الرادفة ـ فهى كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤] .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : «إذاً يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك » .

وقد رواه الترمذى ، وابن جرير، وابن أبى حاتم ، من حديث سفيان الثورى ،بإسناده مثله [(١)]، ولفظ الترمذى وابن أبى حاتم : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ».

وقوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى خائفة . وكذا قال مجاهد ، وقتادة .

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى : أبصار أصحابها .وإنما أضيف إليها ؛ للملابسة ، أى : ذليلة حقيرة ؛ مما عاينت من الأهوال .

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ؟ يعنى : مشركى قريش ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور ، قاله مجاهد . وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ ؟ وقرئ : « ناخرة ».

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : أى بالية . قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودَخَلت الريح فيه . ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .

وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبى مالك ، والسدى ، وقتادة : الحافرة : الحياة بعد الموت . وقال ابن زيد : الحافرة : النار . وما أكثر أسماءها ! هى النار، والجحيم ،وسقر ،وجهنم ، والهاوية ، والحافرة ، ولظى ، والحُطَمة .

وأما قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، فقال محمد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

---

(١) المسند (٥/١٣٦) ، وسنن الترمذى برقم (٢٤٥٧) ، وتفسير الطبرى (٣٠/٢١) .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى : فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فينفخ فى الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَى الربّ عز وجل ينظرون ، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء:٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر:٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل:٧٧].

قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : صيحة واحدة .

وقال إبراهيم التيمى : أشد ما يكون الرب غَضَباً على خلقه يوم يبعثهم .

وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وقتادة ، وأبو صالح .

وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : وجه الأرض .

وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها . قال : و ﴿السَّاهِرَةِ ﴾ : المكان المستوى .

وقال الثورى : ﴿السَّاهِرَةِ ﴾ : أرض الشام ، وقال عثمان بن أبى العاتكة : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : أرض بيت المقدس . وقال وهب بن مُنَبه : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : جبل إلى جانب بيت المقدس . وقال قتادة أيضا: ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : جهنم .

وهذه أقوال كلها غريبة ، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا خَزَر بن المبارك الشيخ الصالح ، حدثنا بشر ابن السرى ، حدثنا مصعب بن ثابت ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : أرض بيضاء عفراء كالخُبزَة النَقىّ .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨] ، ويقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥، ١٠٦] . وقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف:٤٧] : وبرزت الأرض التى عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يَهرَاق عليها دم .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾ .

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ؛ ولهذا قال في آخر القصة: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾ .

فقوله : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ** ﴾ ؟ أي : هل سمعت بخبره ؟ ﴿ **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ** ﴾ أي : كلمه نداء، ﴿ **بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ** ﴾ أي : المطهر ، ﴿ **طُوًى** ﴾ : وهو اسم الوادي على الصحيح ، كما تقدم في سورة «طه» . فقال له : ﴿ **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** ﴾ أي : تجبر وتمرد وعتا ، ﴿ **فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ** ﴾ ؟ أي : قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تَزكَّى به ، أي : تسلم وتطيع. ﴿ **وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ أي : أدلك إلى عبادة ربك ، ﴿ **فَتَخْشَىٰ** ﴾ أي : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشياً بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . ﴿ **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ** ﴾ يعني : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قويةً، ودليلا واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله ، ﴿ **فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ** ﴾ أي: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة . وحاصلُه أنه كفرَ قلبُه فلم ينفعل (١) لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمُهُ بأن ما جاء به أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علمُ القلب ، والإيمان عمله ،وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله : ﴿ **ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ** ﴾ أي : في مقابلة الحق بالباطل ، وهو جَمعُهُ السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى ، عليه السلام ، من المعجزة الباهرة ، ﴿ **فَحَشَرَ فَنَادَىٰ** ﴾ أي : في قومه ، ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ** ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي** ﴾ [القصص:٣٨] بأربعين سنة.

قال الله تعالى : ﴿ **فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ** ﴾ أي : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين في الدنيا ،﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ** ﴾ [هود:٩٩] ، كما قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ** ﴾ [القصص:٤١] . هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله : ﴿ **نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ** ﴾ أي : الدنيا والآخرة ، وقيل : المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذي لا شك فيه الأول .

وقوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾ أي : لمن يتعظ وينزجر .

---

(١) في أ : « فلم يفعل » .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) ﴾ .

يقول تعالى محتجاً على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه : ﴿ أَأَنتُمْ ﴾: أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ؟ يعنى: بل السماءُ أشدّ خلقاً منكم ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (١) ﴾ [يس:٨١] ، فقوله : ﴿ بَنَاهَا ﴾، فسره بقوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أى :جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ،مستوية الأرجاء ،مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء.

وقوله : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : جعل ليلها مظلماً أسود حالكا ،ونهارها مضيئا مشرقا نيرا واضحا .

قال ابن عباس : أغطش ليلها : أظلمه . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وجماعة كثيرون .

﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : أنار نهارها .

وقوله : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، فسره بقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ . وقد تقدم فى سورة « حم السجدة » (٢) أن الأرض خلقت قبل السماء ، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وهذا معنى قول ابن عباس ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى ، حدثنا عبيد الله ــ يعنى ابن عمرو ــ عن زيد بن أبى أنيسة ، عن المِنْهال بن عَمْرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿دَحَاهَا ﴾ : ودَحْيها أن أخرج منها الماء والمرعى ، وشقق [فيها] (٣) الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام ، فذلك قوله : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ . وقد تقدم تقرير ذلك هنالك.

وقوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أى :قررها وأثبتها وأكّدها فى أماكنها ، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه الرحيم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام بن حَوْشب ، عن سليمان بن أبى سليمان ، عن أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تَميد ، فخلق الجبال فألقاها عليها ، فاستقرت ، فتعجبت الملائكةُ من خلق الجبال فقالت : يا ربِّ ، فهل من

(١) فى م ، أ :« بلى إنه على كل شىء قدير » وهو خطأ .
(٢) عند تفسير الآية : ٩.
(٣) زيادة من أ .

خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد . قالت: يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . قالت : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء . قالت: يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال : نعم ، الريح. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ،ابن آدم ، يتصدق بيمينه يخفيها من [1] شماله» [2] .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابنُ حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبى عبد الرحمن السّلمىّ ، عن على قال : لما خلق الله الأرض قمصت وقالت : تخلق عَلَىّ آدم وذريته ، يلقون على نتنهم ويعملون عَلَىّ بالخطايا ، فأرساها الله بالجبال ، فمنها ما ترون ،ومنها ما لا ترون ، وكان أول قَرَار الأرض كلحم الجزور إذا نحر ، يختلج لحمه . غريب [3] .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ،وثبت جبالها ، لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها مدةَ احتياجهم إليها فى هذه الدار إلى أن ينتهى الأمد ، وينقضى الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴾ : وهو يوم القيامة . قاله ابن عباس ، سميت بذلك لأنها تَطُم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦] .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ أى : حينئذ يتذكرُ ابنُ آدم جميع عمله خيره وشره ، كما قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر: ٢٣] .

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أى : أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانا ،﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أى : تَمَرّد وعتا ،﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : قدمها على أمر دينه وأخراه ، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ أى: فإن مصيرَه إلى الجحيم ،وإن مطعمه من الزقوم ،ومشربه من الحميم . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

---

(١) فى أ :« عن » .
(٢) المسند (٣/ ١٢٤) ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٦٩) عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون به ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه » .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٠) .

وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى : خاف القيام بين يدى الله عز وجل ، وخاف حُكْمَ الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وردَّها إلى طاعة مولاها ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أى : منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مَردها ومَرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين ، ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف:١٨٧] ، وقال هاهنا : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ . ولهذا [(١)] لما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » [(٢)] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ أى : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه [(٣)] ،فمن خشى الله وخاف مقامه[(٤)] ووعيده ،اتبعك فأفلح وأنجح ،والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك.

وقوله:﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى:إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا ،حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم .

قال جُوَيْبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾، أما عَشِيَّة : فما بين الظهر إلى غروب الشمس ،﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ : ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة : وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

[آخر تفسير سورة « النازعات »] [(٥)] [ولله الحمد والمنة] [(٦)]

---

(١) فى م:« وهذا » .

(٢) هذا جزء من حديث جبريل الطويل وهو فى صحيح مسلم برقم(٨) .

(٣) فى م :« وعقابه » .

(٤) فى م: « وخاف عقابه » .

(٥) زيادة من م،أ .

(٦) زيادة من م.

سورة النازعات

مكّيّة، وهي خمس أو ستّ وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ إقسامٌ مِن الله عزّ وجلّ بطوائف الملائكة الذين ينزعون الأرواحَ مِن الأجساد على الإطلاق، كما قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهدٌ،[1] أو أرواحَ الكفَرة كما قاله عليّ رضي الله تعالى عنه وابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق.[2] وينشِطونها، أي: يُخرجونها مِن الأجساد مِن "نَشَط الدلوَ" مِن البئر إذا أخرجها، ويسبَحون في إخراجها سَبْح الغوّاص الذي يُخرِج مِن البحر ما يُخرِج فيسبقون بأرواح الكفَرة إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنّة، فيدبِّرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيّئوها لإدراك ما أُعدّ لها / مِن الآلام واللذّات والعطف، [٢٦٣و]
مع اتّخاذ الكلّ بتنزيل التغايُر العُنواني منزلةَ التغايُر الذاتي، كما في قوله:

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمامِ ... وليثِ الكتائبِ في المُزدحَمْ[3]

للإشعار بأنّ كلّ واحد مِن الأوصاف المعدودة مِن مُعظَّمات الأمور حقيقٌ بأن يكون على حياله مَناطًا لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به مِن غير انضمام الأوصاف الأُخَر إليه. و"الفاء" في الأخيرين للدلالة على ترتُّبهما على ما قبلهما بغير مُهلة، كما في قوله:

---

[1] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٨-٣٢٥.

[2] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٨-٣٢٥؛ واللباب لابن عادل، ١٢١/٢٠.

[3] مضى بتخريجه وشرحه في تفسير البقرة، ٢٣١/٢.

يـا لـهـفَ زيّـابـةَ لـلـحـارث الـصـ ـــابـحِ فـالـغـانـمِ فـالآيـبِ[1]

و﴿غَرْقًا﴾ مصدر مؤكِّد بحذف الزوائد، أي: إغراقًا في النَّزْع حيث تنزِعها مِن أقاصي الأجساد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: تنزع روح الكافر مِن جسده مِن تحت كلّ شعرة، ومِن تحت الأظافير وأصول القدمين، ثم تُغرِقها في جسده، ثمّ تنزِعها، حتّى إذا كادت تخرُج تردُّها في جسده، فهذا عملها بالكفّار.[2] وقيل: يرى الكافر نفسَه في وقت النَّزْع كأنّها تغرَق.[3]

وانتصابُ ﴿نَشْطًا﴾ و﴿سَبْحًا﴾ و﴿سَبْقًا﴾ أيضًا على المصدريّة، وأمّا ﴿أَمْرًا﴾ فمفعول لـ﴿ٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾. وتنكيرُه للتهويل والتفخيم. ويجوزُ أن يُراد بـ﴿ٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ وما بعدها طوائفُ مِن الملائكة يسبحون في مُضيّهم، أي: يُسرعون فيه فيسبقون إلى ما أُمروا به مِن الأمور الدنيويّة والأخرويّة.

والمُقسَم عليه محذوف تعويلًا على إشارة ما قبله مِن المُقسَم به إليه ودلالةِ ما بعده مِن أحوال القيامة عليه وهو "لتُبعثنّ"، فإنّ الإقسام بمَن يتولّى نزعَ الأرواح ويقوم بتدبير أمورها يلوِّح بكون المُقسَم عليه مِن قبيل تلك الأمور لا محالةَ. وفيه مِن الجَزالة ما لا يخفى.

وقد جُوّز أن يكون إقسامًا بالنجوم التي تنزِع مِن المَشرِق إلى المَغرِب غَرَقًا في النَّزْع بأن تقطَع الفَلَك حتّى تنحطّ في أقصى الغرب وتنشَط مِن بُرج إلى بُرج، أي: تخرُج مِن "نشِط الثور" إذا خرج مِن بلد إلى بلد، وتسبح في الفَلَك فيسبِق بعضها بعضًا، فتُدبِّر أمرًا نِيط بها، كاختلاف الفصول وتقديرِ الأزمنة وتبيُّنِ مواقيت العبادات.[4] وحيث كانت حركاتها مِن المَشرِق

---

[1] البيت لابن زيّابة، واختُلف في اسمه، فهو: عمرو بن لأي، أو سَلَمة بن ذُهل، أو عمرو بن الحارث بن همّام. وزيّابة أُمّه. انظر تفصيل ذلك والكلامَ على البيت في خزانة الأدب للبغدادي، ١٠٧/٥-١١٣. والبيت له في معجم الشعراء للمرزباني، ص ١٣٣؛ وهو مِن حماسيّة له في شرح الحماسة للمَرزوقي، ١١٤٧/١؛ وبلا عزْو في شرح الرضيّ على الكافية، ٣٣٢/٢.

[2] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢١/٢٠.

[3] القول في اللباب لابن عادل، ١٢١/٢٠؛ وهو بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٨.

[4] القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٤. وأصل القول بأنّه إقسام بالنجوم مرويّ عن الحسن وقتادة في جامع البيان للطبري، ٥٨/٢٤-٥٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٥/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢٢/٢٠.

إلى المَغرِب قسريّةً وحركاتُها مِن برج إلى برج ملائمةً عبّر عن الأولى بـ"النزع" وعن الثانية بـ"النشط".

أو بأنفس الغُزاة أو أيديهم التي تنزع القِسِيَّ بإغراق / السِّهام، وينشطون [٢٦٣ظ] بالسهم للرمي، ويسبحون في البرّ والبحر، فيسبِقون إلى حرب العدوّ، فيدبِّرون أمرها.[1]

أو بخيلهم التي تنزِع في أعِنَّتها نَزْعًا تغرّق فيه الأعِنّة لطول أعناقها؛ لأنّها عِراب، وتخرج مِن دار الإسلام إلى دار الحرب، وتسبح في جريها لتسبِق إلى الغاية فتُدبِّر أمرَ الظفَر والغلَبة.[2] وإسنادُ التدبير إليها؛ لأنّها مِن أسبابه.

هذا، والذي يليق بشأن التنزيل هو الأوّل.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ منصوب بالجواب المضمر، والمراد بـ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الواقعةُ التي ترجُف عندها الأجرامُ الساكنة، أي: تتحرَّك حركةً شديدةً وتتزلزل زلزلةً عظيمةً كالأرض والجبال، وهي النفخة الأولى. وقيل: ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: الأرض والجبال، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل، ١٤/٧٣].[3]

وقوله تعالى: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعة التي تردَف الأولى وهي النفخة الثانية، حالٌ مِن ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ مُصحِّحة لوقوع "اليوم" ظرفًا للبعث، أي: لتُبعثُنّ يومَ النفخة الأولى حالَ كون النفخة الثانية تابعةً لها لا قبل ذلك، فإنّه عبارة عن الزمان الممتدّ الذي يقع فيه النفختان، وبينهما أربعون سنةً، واعتبارُ امتداده مع أنّ البعث لا يكون إلّا عند النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعًا لداهيتين عظيمتين لا يبقى عند وقوع الأولى حيّ إلّا مات ولا عند وقوع الثانية ميّت إلّا بُعث وقام. ووجهُ إضافته إلى الأولى ظاهرٌ.

---

١ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٤.
٢ هذا الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٤/٣.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٤.

وقيل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ منصوب بـ"اذكرْ"،[١] فيكون الجملة استئنافًا مقرِّرًا لمضمون الجواب المضمر، كأنّه قيل: لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: اذكُر لهم يوم النفختين فإنّه وقتُ بعثِهم. وقيل: هو منصوب بما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: يوم ترجُف وجَفت القلوب. قيل: ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلِّق بـ﴿وَاجِفَةٌ﴾ / وهي صفة لـ﴿قُلُوبٌ﴾ مسوِّغة لوقوعه مبتدأ.[٢] [٢٦٤و]

وقوله تعالى: ﴿أَبْصَٰرُهَا﴾ أي: أبصار أصحابها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبرٍ وقعَت خبرًا لـ﴿قُلُوبٌ﴾. وقد مرّ أنّ حقّ الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع، حتّى قالوا: إنّ الصفاتِ قبل العِلم بها أخبارٌ والأخبارُ بعد العِلم بها صفاتٌ،[٣] فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوتُ الخشوع لأبصار أصحابها سواءً في المعرفة والجهالة كان جَعْلُ الأوّل عنوانًا للموضوع مسلَّمَ الثبوت مفروغًا عنه وجَعْلُ الثاني مخبَرًا به مقصودَ الإفادة تحكُّمًا بحتًا. على أنّ الوجيف -الذي هو عبارة عن شدّة اضطراب القلب وقلقه مِن الخوف والوَجَل- أشدُّ مِن خشوع البصر وأهولُ، فجعلُ أهونِ الشرَّين عمدةً وأشدِّهما فضلةً ممّا لا عهدَ له في الكلام. وأيضًا فتخصيصُ الخشوع بـ﴿قُلُوبٌ﴾ موصوفة بصفة معيّنة غيرِ مشعرة بالعموم والشمول تهوينٌ للخَطْب في موقع التهويل.

فالوجه أن يقال: تنكيرُ ﴿قُلُوبٌ﴾ يقوم مقامَ الوصف المخصِّص: سواءٌ حُمل على التنويع، كما قيل، وإن لم يُذكَر النوع المقابلُ، فإنّ المعنى منسَحبٌ عليه؛ أو على التكثير[٤] كما في «شرٌّ أهرَّ ذا نابٍ»،[٥] فإنّ التفخيم كما يكون بالكيفيّة يكون بالكمّيّة أيضًا، كأنّه قيل: قلوب كثيرة يوم إذ يقع النفختان ﴿وَاجِفَةٌ﴾، أي: شديدة الاضطراب. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: خائفة وَجِلة.[٦] وقال السدّي: زائلة عن أماكنها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر، ٤٠/١٨].[٧]

---

١ هذا الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٦٩/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٢٧/٢٠.
٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٤.
٣ انظر القول في المطوّل للتفتازاني، ص ٤٢.
٤ السياق: سواءٌ حُمل على التنويع... أو التكثير...
٥ مِن أمثال العرب. انظر: كتاب سيبويه ٣٢٩/١؛ ومجمع الأمثال للميداني، ٣٧٠/١؛ والمستقصى للزمخشري، ١٣٠/٢.
٦ جامع البيان للطبري، ٦٩/٢٤.
٧ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٧/٨.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ حكاية لِما يقوله المنكِرون للبعث المكذِّبون بالآيات الناطقة به إثرَ بيان وقوعِه بطريق التوكيد القَسَمي، وذِكرُ مقدّماته الهائلة وما يعرِض عند وقوعها للقلوب والأبصار. أي: يقولون إذا قيل لهم: إنكم تُبعثون منكِرين له متعجِّبين منه: أئنّا لَمردودون بعد موتنا في الحافرة، أي: في الحالة الأولى، يعنون الحياة[1] مِن قولهم: / "رَجَع فلان في حافرته"، أي: طريقته التي جاء فيها فحفَرها، أي: أثّر فيها بمشيه. وتسميتُها حافرةً مع أنّها محفورة، كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [الحاقة، ٢١/٦٩] أي: منسوبة إلى الحَفْر والرِّضا، أو كقولهم: "نهارُه صائمٌ" على تشبيه القابل بالفاعل. وقُرِئ: "فِي الحَفِرَةِ"[2] وهي بمعنى المحفورة. [٢٦٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾ تأكيد لإنكار الردّ ونفيه بنسبته إلى حالة مُنافيةٍ له. والعامل في ﴿إِذَا﴾ مضمر يدلّ عليه ﴿مَرۡدُودُونَ﴾، أي: أئذا كنّا عظامًا بالية نُردّ ونُبعث مع كونها أبعدَ شيء مِن الحياة. وقُرئ: "إِذَا كُنَّا"[3] على الخبر أو إسقاطِ حرف الإنكار. وناخِرَة مِن "نخِر العَظْمُ" فهو نخِر وناخِر، وهو البالي الأجوف الذي يمرّ به الريح فيُسمَع له نخير.

﴿قَالُواْ﴾ حكاية لكُفرٍ آخرَ لهم متفرّع على كفرهم السابق. ولعلّ توسيطَ ﴿قَالُواْ﴾ بينهما للإيذان بأنّ صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطّراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمرّ صدوره عنهم في كافّة أوقاتهم حسبما ينبئ عنه حكايته بصيغة المضارع، أي: قالوا بطريق الاستهزاء مُشيرين إلى ما أنكروه مِن الرَدّة في الحافِرة مشعرين بغاية بُعدها مِن الوقوع. ﴿تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ أي: ذاتُ خُسران أو خاسِرة أصحابها، أي: إن صحّت فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا بها.

---

[1] س + بعد الموت.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن يعمر والضرير عن يعقوب. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٨؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٠١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

[3] قرأ بها نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٧٤/١.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ تعليل لمقدّر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخِرة الذي عبّروا عنها بالكرّة، فإنّ مداره لمّا كان استصعابَهم إيّاها رُدّ عليهم ذلك فقيل: لا يستصعِبوها فإنّما هي صيحة واحدة، أي: حاصلة بصيحة واحدة وهي النفخة الثانية، عُبّر عنها بها تنبيهًا على كمال اتّصالها بها، كأنّها عينُها. وقيل:[١] ﴿هِيَ﴾ راجع إلى ﴿الرَّادِفَةُ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ حينئذ بيان لترتّب الكرّة على الزجرة مفاجأةً، أي: فإذ هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتًا في جوفها، وعلى الأوّل بيان لحضورهم الموقف عقيبَ الكرّة التي عُبّر عنها بالزجرة. و﴿السَّاهِرَةِ﴾: الأرض البيضاء المستوية، سُمّيت بذلك؛ لأنّ السراب يجري فيها، مِن قولهم: "عين ساهرة جارية الماء"، وفي / ضدّها "نائمة". [٢٦٥و]

وقيل: لأنّ سالكها لا ينام خوف الهَلَكة.[٢] وقيل: اسم لجهنّم.[٣] وقال الراغبُ: هي وجه الأرض.[٤] وقيل: هي أرض القيامة.[٥] وروى الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ الساهرة أرض مِن فضّة لم يُعصَ الله تعالى عليها قطّ خلقها حينئذ.[٦] وقيل: هي أرض يجدّدها الله عزّ وجلّ يوم القيامة. وقيل: هي اسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيُحاسب الخلائق عليها، وذلك حين تُبدَّل الأرضُ غير الأرض.[٧] وقال الثوري: الساهرة أرض الشام.[٨] وقال وهب بن منبِّه: جبل بيت المَقدِس.[٩] وقيل: الساهِرة بمعنى الصحراء على شفير جهنّم.[١٠]

---

١ وفي هامش م: كواشي. انظر: تفسير الكواشي، ٥٧٢و.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٤.
٣ مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٧٨/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٨/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٤؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٥/٣.
٤ مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٤٣٠؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٣٤/٢٠. وهو مرويّ عن ابن عبّاس وعكرمة والحسن وسعيد بن جُبير والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٧٥/٢٤-٧٧.
٥ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٦ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٧ القولان في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٨ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٨/٨؛ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٩ جامع البيان للطبري، ٧٨/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
١٠ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ كلام مستأنف وارد لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن تكذيب قومه بأنّه يصيبهم مثلُ ما أصاب مَن كان أقوى منهم وأعظمَ. ومعنى هل ﴿أَتَىٰكَ﴾ -إن اعتُبر هذا أوّل ما أتاه عليه السلام مِن حديثه عليه السلام-[١] ترغيبٌ له عليه السلام في استماع حديثه، كأنّه قيل: هل أتاك حديثه؟ أنا أخبرك به، وإن اعتُبر إتيانه قبل هذا، وهو المتبادر مِن الإيجاز في الاقتصاص، أليس قد أتاك حديثه؟

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ ظرف للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتيهما. ﴿طُوًى﴾ بضمّ "الطاء" غيرَ منوَّن. وقُرئ مُنوَّنًا،[٢] وقُرئ بالكسر مُنوَّنًا[٣] وغيرَ منوَّن،[٤] فمَن نونّه أوّله بالمكان دون البقعة. وقيل: هو كـ"ثُنًى" مصدر لـ"نادى" أو ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾، أي: ناداه نِدائين، أو المقدّس مرّةً بعد أخرى.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول. وقيل: هو تفسير للنداء، أي: ناداه: اذهبْ. وقيل: هو على حذف "أن" المفسِّرة، ويدلّ عليه قراءة عبد الله: "أَنِ اذْهَبْ"؛[٥] لأنّ في النداء معنى القول. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ / تعليل للأمر أو لوجوب الامتثالِ به. [٢٦٥ظ]

﴿فَقُلْ﴾ بعد ما أتيتَه ﴿هَل لَّكَ﴾ رغبة وتوجُّه ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ بحذف إحدى "التاءين" مِن تتزكّى، أي: تتطهَّر مِن دَنَس الكفر والطغيان. وقُرئ: "تَزَّكَّى"[٦] بالتشديد.

---

[١] س - عليه السلام.

[٢] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد والأعمش وابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن عُبيد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٢.

[٦] قرأ بها نافع وابن كثير ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأُرشِدك إلى معرفته عزّ وجلّ فتعرِفه ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ إذ الخشية لا تكون إلّا بعد معرفته تعالى، قال عزّ وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر، ٢٨/٣٥]، وجَعَل الخشية غايةً للهداية لأنّها ملاك الأمر، مَن خشيَ الله تعالى أتى منه كلّ خير، ومَن أمِنَ اجترأ على كلّ شرّ. أُمِر النبيّ عليه السلام بأن يُخاطِبه بالاستفهام الذي معناه العَرْض ليستدعيه بالتلطّف في القول ويستنزِله بالمُداراة مِن عُتوّه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه، ٤٤/٢٠].

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فصيحة تُفصِح عن جُمَل قد طُويَت تعويلًا على تفصيلها في السوَر الأخرى، فإنّه عليه السلام ما أراه إيّاها عَقيب هذا الأمر؛ بل بعد ما جرى بينه وبين الله تعالى ما جرى مِن الاستدعاء والإجابة وغيرِهما مِن المراجعات، وبعد ما جرى بينه وبين فرعونَ ما جرى مِن المحاورات، إلى أن قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف، ١٠٦/٧].

والإراءة إمّا بمعنى التبصير أو التعريف، فإنّ اللعين حين أبصرها عرَفها. وادّعاء سحريّتها إنّما كان إراءةً منه وإظهارًا للتجلّد. ونسبتُها إليه عليه السلام بالنظر إلى الظاهر، كما أنّ نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾ [طه، ٥٦/٢٠] بالنظر إلى الحقيقة.

والمراد بـ﴿ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قلبُ العصا حيّةً، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما،[١] فإنّها كانت المقدّمة والأصل، والأخرى كالتبَع لها. أو هما جميعًا، وهو قول مجاهد،[٢] فإنّهما كالآية الواحدة، وقد عُبّر عنهما بصيغة الجمع حيث قيل: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى﴾ [طه، ٤٢/٢٠]، باعتبار ما في تضاعيفهما / مِن بدائع الأمور التي كلّ منها آية بيّنة لقوم يعقلون، كما مرّ تفصيله في سورة طه،[٣] [٢٦٦و]

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٨/٢٠.
٢ مرويّ عن الحسن ومجاهد وقتادة في جامع البيان للطبري، ٨٢/٢٤؛ واللباب لابن عادل، ١٣٨/٢٠.
٣ في تفسير الآية الثانية والأربعين منها.

ولا مَساغ لحَمْلها على مجموع معجزاته، فإنّ ما عدا هاتين الآيتين مِن الآيات التسع إنّما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غَلَب السحرة على مَهَل في نحو مِن عشرين سنةً، كما مرّ في سورة الأعراف،[1] ولا ريبَ في أنّ هذا مطلَع القصّة وأَمر السحرة مُترقَّب بعد.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بموسى عليه السلام، وسمّى معجزته سِحرًا ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله عزّ وجلّ بالتمرّد بعد ما علِم صحّة الأمر ووجوبَ الطاعة أشدَّ عصيان وأقبحَه، حيث اجترأ على إنكار وجود ربّ العالمين رأسًا، وكان اللعينُ وقومُه مأمورين بعبادته عزّ وعلا وتركِ العظيمة التي كان يدّعيها الطاغية ويقبلها منه فئتُه الباغية، لا بإرسال بني إسرائيلَ مِن الأسْر والقَسْر فقط.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: تولّى عن الطاعة، أو انصرف عن المجلس ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يجتهد في معارضة الآية، أو أريدَ: ثمّ أقبَل، أي: أنشأ يسعى فوُضع موضعَه ﴿أَدْبَرَ﴾ تحاشيًا عن وصفه بالإقبال. وقيل: أدبرَ هاربًا مِن الثعبان.[2] فإنّه رُوي أنّه عليه السلام لمّا ألقى العصا انقلبت ثعبانًا أشعرَ فاغرًا فاه بين لَحييه ثمانون ذراعًا وضع لَحيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سُور القصر، فتوجَّه نحو فرعونَ فهرب وأحدَث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا مِن قومه. وقيل: إنها انقلبت حيّةً ارتفعت في السماء قدرَ مِيل ثمّ انحطت مقبلةً نحو فرعون، وجعلت تقول: يا موسى مُرني بما شئت ويقول فرعون: أنشدك بالذي أرسلك إلّا أخذتَه فأخذه فعاد عصًا.[3]

ويأباه أنّ ذلك كان قبل الإصرار على التكذيب والعصيان والتصدّي للمعارضة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: فجَمَع السَّحَرةَ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ[4] فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء، ٥٣/٢٦]، وقولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه، ٦٠/٢٠] أي: ما يُكاد به مِن السَّحَرة وآلاتهم.

---

١ في تفسير الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣٩/٢٠.

٣ مضت هذه المرويات بتخريجها في تفسير طه، ٥٦/٢٠.

٤ م س – فرعون.

وقيل: جنودَه.[1] ويجوز أن يراد: جَمَع الناس.[2] ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المَجمَع بنفسه، أو بواسطة المنادي.

[٢٦٦ظ] ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قيل: قام فيهم خطيبًا، فقال / تلك العظيمة.[3]

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ النَّكال بمعنى التنكيل كـ"السلام" بمعنى "التسليم"، وهو التعذيب الذي يُنكّل مَن رآه أو سمعه ويمنعه مِن تعاطي ما يفضي إليه، ومحلّه النصب على أنّه مصدر مؤكِّد كـ"وَعْدَ الله" و"صبغةَ الله"، كأنّه قيل: نكّل الله به نكالَ الآخرة والأولى، وهو الإحراق في الآخرة والإغراقُ في الدنيا.

وقيل: مصدر لـ﴿أَخَذَ﴾، أي: أخذَه الله أخذَ نَكال... إلخ، وقيل: مفعول له، أي: أخذه لأجل نَكال... إلخ. وقيل: نصب على نَزْع الخافض، أي: أخذه بنَكال الآخرة والأولى.[4] وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع نفس الأخذِ فيهما، لا باعتبار أنّ ما فيه مِن معنى المنع يكون فيهما، فإنّ ذلك لا يتصوَّر في الآخرة؛ بل في الدنيا، فإنّ العقوبة الأخرويّة تنكّل مَن سمعها وتمنعه مِن تعاطي ما يؤدّي إليها لا محالةَ.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات، ٧٩/٢٤]، وقولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص، ٢٨/٣٨].[5] قيل: كان بين الكلمتين أربعون سنةً.[6] فالإضافة إضافة المسبَّب إلى السبب.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قصّة فرعونَ وما فَعَل وما فُعل به ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي: لمَن مِن شأنه أن يخشى، وهو مِن مَن شأنه المعرفة.

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٩٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/١٣٩.

[2] هذا الوجه في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٣٩.

[3] القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٣٩.

[4] الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٤٠؛ والأوّلان بلفظ قريب في التبيان للعكبري، ٢/١٢٦٩.

[5] مرويّ عن ابن عبّاس ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٤/٨٤-٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٣.

[6] مرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٤/٨٤-٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٢٩؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٣.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ خطاب لأهل مكّة المنكِرين للبعث بناءً على صعوبته في زَعْمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بُيّن كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله عزّ وجلّ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات، ١٩/٣٧]، أي: أخَلْقكم بعد موتكم أشدّ، أي: أشقّ وأصعب في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: أم خَلْق السماء على عِظَمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر، ٥٧/٤٠]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس، ٨١/٣٦].

وقوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾... إلخ، بيان وتفصيل لكيفيّة خَلْقها المستفاد مِن قوله تعالى:[١] ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، وفي عدم ذِكر الفاعل فيه وفيما عُطف عليه مِن التنبيه على تعيّنه وتفخيمِ شأنه عزّ وجلّ ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ بيان للبناء، أي: جَعْلُ مقدار ارتفاعِها مِن الأرض وذهابِها إلى سَمْت العُلوّ مديدًا رفيعًا مسيرةَ خمسمائة عام. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعدَّلها مستويةً ملساءَ ليس فيها تفاوتٌ ولا فُطور، أو فتمّمها بما عَلِم أنّها تتمّ به مِن الكواكب / والتداوير وغيرِها ممّا لا يعلمه إلّا الخلّاق العليم مِن قولهم: "سوّى أمرَ فلان" إذا أصلحه. [٢٦٧و]

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جَعَله مظلِمًا، يقال: غَطِش الليل وأغطَشه الله تعالى، كما يقال: ظَلِم وأظلَمه، وقد مرّ هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة، ٢٠/٢]. ويقال أيضًا: أغطَش الليل، كما يقال: "أظلَم".

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أبرَز نهارها، عُبّر عنه بالضّحى؛ لأنه أشرفُ أوقاته وأطيبُها، فكان أحقَّ بالذِّكر في مقام الامتنان، وهو السرُّ في تأخير ذِكره عن ذِكر الليل.

[١] س - تعالى.

وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، فإنّ إفاضةَ النور بعد الظُّلمة أتمّ في الإنعام وأكملُ في الإحسان. وإضافةُ "الليل" و"الضحى" إلى السماء لدوران حدوثهما على حركتها. ويجوز أن يكون إضافة "الضحى" إليها بواسطة الشمس، أي: أبرَز ضوء شمسِها.[١] والتعبيرُ عنه بالضّحى؛ لأنّه وقت قيام سلطانها وكمال إشراقها.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا﴾ أي: بسَطها ومهّدها لسكنى أهلها وتقلُّبهم في أقطارها، وانتصابُ الأرض بمضمر يفسّره ﴿دَحَىٰهَا﴾.

﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا﴾ بأن فجّر منها عُيونًا وأجرى أنهارًا ﴿وَمَرۡعَىٰهَا﴾ أي: رَعْيَها، وهو في الأصل موضعُ الرَّعي. وقيل: هو مصدر مِيميّ بمعنى المفعول.[٢] وتجريد الجملة عن العاطف إمّا لأنّها بيان وتفسير لـ﴿دَحَىٰهَا﴾ وتكملة له، فإنّ السُّكنى لا يتأتّى بمجرّد البسط والتمهيد؛ بل لا بدّ مِن تسوية أمرِ المَعاش مِن المأكل والمشرب حتمًا، وإمّا لأنّها حال مِن فاعله بإضمار "قد" عند الجمهور أو بدونه عند الكوفيّين والأخفش،[٣] كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النساء، ٩٠/٤].

﴿وَٱلۡجِبَالَ﴾ منصوب بمضمر يفسّره ﴿أَرۡسَىٰهَا﴾ أي: أثبتَها وأثبتَ بها الأرض أن تميد بأهلها. وهذا تحقيق للحقّ وتنبيهٌ على أنّ الرسوّ المنسوب إليها في مواضعَ كثيرةٍ مِن التنزيل بالتعبير عنها بالرواسي ليس مِن مقتضيات ذواتها؛ بل هو بإرسائه عزّ وجلّ، ولولاه لَما ثبتَتْ في أنفسها فضلًا عن إثباتها للأرض. وقُرئ: "وَالأَرْضُ" و"الجَبَالُ"[٤] بالرفع على الابتداء.

ولعلّ تقديمَ إخراج الماء والمرعى ذِكرًا مع تقدّم الإرساء عليه وجودًا / وشدّةَ تعلّقِه بالدَّحْو لإبراز كمال الاعتناء بأمر المَأكَل والمَشرَب، مع ما فيه [٢٦٧ظ] مِن دَفْع توهّم رجوع ضميرَي الماء والمَرعى إلى الجبال. وهذا كما ترى يدلّ

---

١ وهو المذكور في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.
٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠.
٣ الكلام في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠. وانظر تفصيل المسألة في الإنصاف للأنباري، ٢٥٢/١-٢٥٨. ومضى موجزًا في تفسير سورة الجن، ٢٨/٧٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عُبيد وأبي حَيْوَة وأبي السّمّال وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٦.

بظاهره على تأخّر دَحْو الأرض عن خَلْق السماء وما فيها، كما يُروى عن الحسَن مِن أنّه تعالى خَلَق الأرض في موضع بيت المَقدِس كهيئة الفِهر[١] عليه دُخانٌ ملتزِق بها، ثمّ أصعَد الدخان وخَلَق منه السماواتِ وأمسك الفِهر في موضعها وبسطَ منها الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الآية [الأنبياء، ٣٠/٢١].[٢]

وقد مرّ في سورة السجدة حم أنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت، ٩/٤١] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآية [فصلت، ١١/٤١] إنّ حُمِل ما فيه مِن الخَلْق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة لا على تقديرها، فهو وما في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة، ٢٩/٢] يدلّان على تقدّم خَلْق الأرض وما فيها على خَلْق السماء وما فيها. وعليه إطباقُ أكثرِ أهل التفسير.

وقد رُوي أنّ العرش كان قبل خَلْق السماوات والأرض على الماء، ثمّ إنّه تعالى أحدَث في الماء اضطرابًا، فأزبَد فارتفع منه دُخان، فأمّا الزَّبَد فبقيَ على وجه الماء، فخَلَق فيه اليُبوسةَ فجعله أرضًا واحدةً ثمّ فتقها فجعلها أرضِين وأمّا الدخان فارتفع وعلا فخَلَق منه السماوات.

ورُوي أنّه تعالى خَلَق جِزم الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين ودحاها، وخَلَق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخَلَق السماواتِ وما فيهنّ يوم الخميس ويوم الجمعة، وخَلَق آدمَ عليه السلام في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.[٣]

فالأقربُ كما قيل تأويلُ هذه الآيةِ بأن يُجعَل ذلك إشارةً إلى ذِكر ما ذُكر مِن بناء السماء / ورَفْع سَمْكها وتسويتِها وغيرِها لا إلى أنفسها، ويُحمَل بُعديّة [٢٦٨و]

---

١ الفِهر: حجَر يملأ الكفّ. لسان العرب لابن منظور، «فهر».

٢ ما رُوي عن الحسن مضى مرارًا، آخرُها في تفسير فصلت، ١٢/٤١.

٣ مضت هذه المرويّات في تفسير فصلت، ١٢/٤١.

الدَّحْو عنها على البعديَّة في الذِّكر كما هو المعهود في ألسنة العرب والعجم لا في الوجود، لِما عرفتَ مِن أنّ انتصاب الأرض بمضمر مقدَّم قد حُذف على شريطة التفسير لا بما ذُكر بعده ليفيد القصر وتتعيَّن البَعديّة في الوجود.

وفائدة تأخيره في الذِّكر إمّا التنبيهُ على أنّه قاصر في الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة إلى أحوال السماء، وإمّا الإشعار بأنّه أدخَل في الإلزام، لِما أنّ المَنافع المَنوطَةَ بما في الأرض أكثرُ وتعلُّقَ مصالح الناس بذلك أظهرُ وإحاطتَهم بتفاصيل أحواله أكملُ.

وليس ما رُوي عن الحسَن رضي الله عنه نصًّا في تأخّر دَحْو الأرض عن خَلْق السماء فإنّ بَسْط الأرض معطوف على إصعاد الدُّخان وخَلْق السماء بـ"الواو" التي هي بمَعزِل مِن الدلالة على الترتيب.

هذا على تقدير حَملِ ما ذُكر في آيات سورة السجدة مِن الخَلْق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة، وأمّا إذا حُملت على تقديرها فلا دلالةَ فيها إلّا على تقدّم تقدير الأرض وما فيها على إيجاد السماء، كما لا دلالةَ على الترتيب أصلًا إذا حُملت كلمة "ثمّ" فيها وفيما في سورة البقرة[1] على التراخي في الرُّتبة. وقد سلف تفصيلُ الكلام في السورة المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ إمّا مفعول له، أي: فعل ذلك تمتيعًا لكم ولأنعامكم؛ لأنّ فائدة ما ذُكر مِن البسط والتمهيد وإخراجِ الماء والمرعى واصلةٌ إليهم ولأنعامهم، فإنّ المراد بـ"المَرعى" ما يعمّ ما يأكله الإنسان وغيرُه بناءً على استعارة الرَّعي لتناول المأكول على الإطلاق، كاستعارة "المَرسِن" للأنف. وقيل: مصدر مؤكِّد لفعله المضمر، أي: متَّعكم بذلك متاعًا، أو مصدر مِن غير لفظه، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات، ٣١/٧٩] في معنى "متَّع بذلك".[2]

---

[1] في الآية التاسعة والعشرين منها، ومضى ذِكرها آنفًا.

[2] الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الداهية العظمى التي تطمّ على سائر الطامّات، أي: تعلوها وتغلبها، وهي القيامة أو النفخة الثانية. وقيل: هي الساعة التي يُساق فيها الخلائق إلى مَحشرِهم. وقيل: التي يُساق فيها أهل الجنّة إلى الجنّة وأهل النار إلى النار.[١] شروع في بيان أحوال معادهم إثر بيانِ أحوال معاشهم بقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾... إلخ [المائدة، ٩٦/٥]، و"الفاء" للدلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها عمّا قليل، كما ينبئ عنه لفظ المتاع.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ قيل: هو بدل مِن ﴿إِذَا جَآءَتْ﴾.[٢] والأظهرُ أنّه منصوب بـ"أعني"، كما قيل،[٣] تفسيرًا لـ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، فإنّ الإبدال منها بالظَرف المَحض ممّا يُوهِن تعلّقها بالجواب. ويجوز أن يكون بدلًا مِن ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ / مفتوحًا لإضافته إلى الفعل على رأي الكوفيّين،[٤] أي: يتذكّر فيه كلّ أحد ما عَمِله مِن خير أو شرّ بأن يُشاهده مدوّنًا في صحيفة أعماله، وقد كان نسيَه مِن فرط الغفلة وطولِ الأمد، كقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة، ٦/٥٨]. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريّةً.[٥] [٢٦٨ظ]

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ عطفٌ على ﴿جَآءَتْ﴾، أي: أُظهِرت إظهارًا بيّنًا لا تخفى على أحد ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ كائنًا مَن كان. يُروى أنّه يُكشف عنها فتتلظّى فيراها كلّ ذي بصر. وقُرئ: "وَبَرَزَتْ"[٦] بالتخفيف، و"لِمَنْ رَأَى"[٧] و"لِمَنْ تَرَى"،[٨] على أنّ فيه

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٧/٢٠.
٤ انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية ٢٤٩/١.
٥ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نهيك وعكرمة وأبي السّمّال ومالك بن دينار، وهارون عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٧.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وعُبيد بن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٧.

ضمير الجحيم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان، ١٢/٢٥]، أو على أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أي: لمَن تراه مِن الكفّار.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾... إلى آخره جواب ﴿فَإِذَا﴾، جاءت على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الآية [البقرة، ٣٨/٢]. وقيل: هو تفصيل للجواب المحذوف، تقديره: انقسم الراءون قسمين ﴿فَأَمَّا مَن﴾... إلخ.[١]

والذي يستدعيه فخامةُ التنزيل ويقتضيه مقامُ التهويل أنّ الجواب المحذوف كان مِن عظائم الشئون ما لم تُشاهده العيون، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥] أي: فأمّا مَن عتا وتمرّد عن الطاعة وجاوز الحدّ في العصيان ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية التي هي على جناح الفوات فانهمك فيما مُتّع به فيها، ولم يستعدّ للحياة الأخرويّة الأبديّة بالإيمان والطاعة، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ التي ذُكر شأنها ﴿هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: هي مأواه. و"اللام" سادّة مَسدّ الإضافة، للعِلم بأنّ صاحب المأوى هو الطاغي، كما في قولك: "غُضّ الطَّرْفَ". ودخول "اللام" في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ و"الطَّرْف" للتعريف؛ لأنّهما معروفان، وهي إمّا ضمير فَصْل أو مبتدأ. قيل: نزلت الآية في النَّضْر وأبيه الحارث المشهورَين بالغلوّ في الكفر والطغيان.[٢]

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مقامه بين يدي مالك أمرِه يومَ الطامّة الكبرى، يومَ يتذكّر الإنسان ما سعى، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ عن المَيل إليه بحُكم الجِبلّة البشريّة، ولم يعتدّ بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها، ولم يغترّ بزخارفها وزينتها عِلمًا منه بوَخامة عاقبتها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ له لا غيرُها. وقيل: نزلت الآيتان في أبي عَزيز بن عُمير ومصعب بن عُمير وقد قتَل مصعب أخاه أبا عَزيز يوم أُحُد ووقى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى استُشهد رضي الله عنه.[٣]

[٢٦٩و] هذا، وقد قيل: / جوابُ ﴿إِذَا﴾ ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾... إلخ، أي: فإذا جاءت الطامّة الكبرى يتذكّر الإنسان ما سعى، على طريقة قوله تعالى:

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٦/٢٠.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٧/٢٠.

٣ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٤٩/٢٠.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير، ١٤/٨١]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار، ٥/٨٢]، فيكون قولُه تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ عطفًا عليه، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق، أو حالًا مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بإضمار "قد"، أو بدونه على اختلاف الرأيين، و﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ مُغنٍ عن العائد؛ وقولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾... إلخ تفصيلًا[١] لحالَي الإنسان الذي يتذكّر ما سعى وتقسيمًا له بحسب أعماله إلى القسمين المذكورين.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤها، أي: إقامتها، يُريدون متى يُقيمها الله تعالى ويُثبِتها ويكوِّنها. وقيل: أيّان منتهاها ومستقرُّها، كما أنّ مُرسى السفينة حيث تنتهي إليه وتستقرّ فيه.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ إنكارٌ وردّ لسؤال المشركين عنها، أي: في أيّ شيء أنت مِن أن تذكُر لهم وقتها وتُعلِمَهم به حتّى يسألوك بيانها، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧] أي: ما أنت مِن ذِكرها لهم وتبيين وقتها في شيء؛ لأنّ ذلك فَرْعُ عِلمك به، وأنّى لك ذلك؟ وهو ممّا استأثر بعِلمه علّام الغيوب.

ومَن قال بصدَد التعليل: فإنّ ذِكرها لا يزيدهم إلّا غَيًّا،[٣] فقد نأى عن الحقّ. وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم، وما بعده مِن الاستئناف تعليل للإنكار وبيانٌ لبطلان السؤال، أي: فيمَ هذا السؤال. ثمّ ابتُدئ فقيل: أنت مِن ذكراها، أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء المبعوث في نسَم الساعة علامةٌ مِن علاماتها، ودليل يدلّهم على العِلم بوقوعها عن قريب فحسبُهم هذه المَرتبة مِن العِلم.[٤]

---

[١] السياق: فيكون قوله... عطفًا... وقولُه... تفصيلًا...

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤.

[٣] الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٧/٣.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤.

فمعنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَا﴾ على هذا الوجه: إليه تعالى يرجع منتهى عِلمِها، أي: عِلمها بكنهها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى أحد غيره، وإنّما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها، وقد حصل لهم ذلك بمَبعثك، فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك؟ وأمّا على الوجه الأوّل فمعناه إليه تعالى انتهاء عِلمها ليس لأحد منه شيء ما كائنًا مَن كان، فلأيّ شيء يسألونك عنها؟

[٢٦٩ظ] / وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ على الوجه الأوّل تقرير لِما قبله مِن قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾،[1] وتحقيقٌ لِما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه السلام في ذلك الشأن، فإنّ إنكار كونه عليه السلام في شيء مِن ذكراها ممّا يُوهِم بظاهره أن ليس له عليه السلام أن يذكُرها بوجه مِن الوجوه، فأزيحَ ذلك ببيان أنّ المنفيَّ منه عليه السلام ذِكرُها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عليه السلام عنها. فالمعنى إنّما أنت منذِرُ مَن يخشاها، وظيفتُك الامتثال بما أُمِرتَ مِن بيان اقترابها وتفصيلِ ما فيها مِن فنون الأهوال كما تُحيط به خُبرًا، لا تعيينُ وقتها الذي لم يُفوَّض إليك، فما لهم يسألونك عمّا ليس مِن وظائفك بيانه؟

وعلى الوجه الثاني هو تقرير لقوله تعالى: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾[2] ببيان أنّ إرساله عليه السلام، وهو خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، منذِرٌ بمجيء الساعة، كما ينطق به قوله عليه السلام: «بُعِثتُ أنا والساعةُ كهاتين، إن كادت لَتسبِقني».[3] وقُرئ: "مُنْذِرٌ"[4] بالتنوين، وهو الأصل، والإضافةُ تخفيفٌ صالح للحال والاستقبال، فإذا أُريدَ الماضي تعيَّنت الإضافة. وتخصيص الإنذارِ بمَن يخشى مع عموم الدعوة لأنّه المُنتفَع به.

---

[1] في الآية الثالثة والأربعين مِن هذه السورة.

[2] في الآية الثالثة والأربعين مِن هذه السورة.

[3] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٦١/٣١ (١٨٧٧٠)، ٣٦/٣٨ (٢٢٩٤٧)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٢٦/٢٢ (٣٢٦). والشطر الأوّل منه في صحيح البخاري، ١٠٥/٨ (٦٥٠٤)؛ وصحيح مسلم، ٥٩٢/٢ (٨٦٧)؛ وسنن الترمذي، ٤٩٦/٤ (٢٢١٤).

[4] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ إمّا تقرير وتأكيد لِما ينبئ عنه الإنذار مِن سرعة مجيء المُنذَر به، لا سيّما على الوجه الثّاني، أي: كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلّا عشيّةَ يوم واحد أو ضحاه، فلمّا تُرك "اليوم" أضيف ضحاه إلى عشيّته؛ وإمّا ردٌّ[1] لِما أدمجوه في سؤالهم، فإنّهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجِلين بها، وإن كان على نهج الاستهزاء بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس، ١٠/٤٨]. فالمعنى: كأنّهم يومَ يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلّا عشيّةً أو ضحاها.

واعتبار كونِ اللُّبث في الدنيا أو في القبور،[2] لا يقتضيه المقام، وإنّما الذي يقتضيه اعتبار كونه بعد الإنذار أو بعد الوعيد تحقيقًا للإنذار وردًّا لاستبطائهم.

والجملة على **الأوّل** حال مِن الموصول، فإنّه / على تقديرَي الإضافة وعدمِها مفعول لـ﴿مُنذِرُ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس، ١٠/٤٥] حالٌ مِن ضمير المفعول في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ [يونس، ١٠/٤٥]، أي: يحشُرهم مُشْبِهِين بمَن لم يلبث في الدنيا إلّا ساعةً، خلا أن الشَّبَه هناك في الأحوال الظاهرة مِن الزيّ والهيئة وفيما نحن فيه في الاعتقاد، كأنّه قيل: تُنذرهم مُشْبِهِين يومَ يرونها في الاعتقاد بمَن لم يلبث بعد الإنذار بها إلّا تلك المدّة اليسيرة؛ وعلى **الثاني** مُستأنَفة[3] لا محلّ لها.[4] [٢٧٠و]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة والنازعات كان ممّن حبَسه الله عزّ وجلّ في القبر والقيامة حتّى يدخل الجنّة قدرَ صلاة مكتوبة».[5]

---

١ السياق: إمّا تقريرٌ... وإمّا ردٌّ...

٢ الوجهان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٥٢٥.

٣ السياق: والجملة على الأوّل... وعلى الثاني...

٤ س ي + مِن الإعرب. | كأنّه خُطّ عليها.

٥ بلفظ قريب في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٨/٣٦٢ (النازعات، ٧٩/١)؛ و**التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٤١٨ (النازعات، ٧٩/١)؛ وبلفظه في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٥٢٥. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة النازعات

وتسمَّى سورةَ الساهرة، والطامَّة.

وهي مكيةٌ بالاتفاق. وعددُ آيها ستٌّ وأربعون في الكوفيِّ وخمسٌ وأربعون في غيره[1].

وعن ابن عباس أنها نزلت عقبَ سورة «عمَّ». وأوَّلُها يشبه أن يكون قَسَماً لتحقيق ما في آخر «عمَّ» أو ما تضمَّنته كلُّها.

وفي «البحر»[2]: لمَّا ذكر سبحانه في آخر ما قبلها الإنذارَ بالعذاب يومَ القيامة أقْسَم عز وجل في هذه على البعث ذلك اليوم، فقال جلَّ شأنه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ أقسامٌ من الله تعالى بطوائفَ من ملائكة الموت عليهم السلام الذين ينزعون الأرواحَ من الأجساد على الإطلاق كما في روايةٍ عن ابن عباس ومجاهد[3]. أو أرواحَ الكَفَرة على ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن عليٍّ

---

(١) ورد في هامش الأصل ما نصُّه: اختلافها آيتان: ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [٣٣] حجازي كوفي. ﴿طَغَىٰ﴾ [٣٧] عراقي وشامي. اهـ. والكلام من مجمع البيان ٣٠/ ١٧.

(٢) ٨/ ٤١٩.

(٣) هذا قول ابن مسعود ورواية عن ابن عباس كما في النكت والعيون ٦/ ١٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، والبحر ٨/ ٤١٩، وقال مجاهد: إنها المنايا تنزع النفوس. وقوله في المصادر المذكورة آنفاً. ولم نقف على من نسب القول الأول لمجاهد.

كرَّم الله تعالى وجهه، وجويبر في تفسيره عن الحبر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود، وعبد بن حميد عن قتادة[١]، ورُوي عن سعيد بن جبير ومسروق[٢].

ويَنْشِطُونها: أي: يُخرِجونها من الأجساد، من نَشَط الدَّلْوَ من البئر: إذا أخرجها، ويَسبَحون في إخراجها سَبْحَ الذي يُخرِج من البحر ما يُخرج، فيَسْبِقون ويُسرِعُون بأرواح الكَفَرة إلى النار، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، فيدبِّرون أمرَ عقابِها وثوابِها بأن يُهَيِّئوها لإدراكِ ما أُعِدَّ لها من الآلام واللذَّاتِ.

ومال بعضُهم إلى تخصيص النزع بأرواح الكفار، والنشطِ والسبحِ بأرواح المؤمنين، لأن النزعَ جذبٌ بشدَّةٍ، وقد أردف بقوله تعالى: «غرقاً» وهو مصدرٌ مؤكِّدٌ بحذف الزوائد، أي: إغراقاً في النزع من أقاصي الأجساد.

وقيل: هو نوعٌ، والنزعُ جنسٌ، أي: في هذا المحلِّ، وذلك أنسبُ بالكفار، وقال ابن مسعود: تَنزع الملائكة روحَ الكافر من جسده من تحتِ كلِّ شعرةٍ ومن تحت الأظافر وأصولِ القدمَيْنِ، ثم تُغرِقها في جسده ثم تنزعها، حتى إذا كادت تخرُج يرُدُّها في جسده، وهكذا مراراً، فهذا عملُها في الكفَّار.

والنشْطُ: الإخراجُ برفقٍ وسهولةٍ، وهو أنسبُ بالمؤمنين، وكذا السبحُ ظاهرٌ في التحرُّك برفقٍ ولطافةٍ، قال بعضُ السلف: إنَّ الملائكةَ يسُلُّون أرواحَ المؤمنين سلًّا رقيقاً، ثم يتركونها حتى تَستريحَ رُويداً، ثم يستخرجونها برفقٍ ولطفٍ، كالذي يسبَح في الماء فإنه يتحرَّك برفقٍ لئلا يغرق، فهم يرفقون في ذلك الاستخراج لئلا يصل إلى المؤمن ألمٌ وشدَّةٌ.

وفي «التاج» أنَّ النشطَ حلُّ العقدةِ برفقٍ[٣]. ويقال ـ كما في «البحر»[٤] ـ: أَنْشَطْتُ العقالَ ونَشَطْتُه: إذا مددتَ أنشوطتَه فانحلَّت، والأنشوطة: عُقدةٌ يَسهُل

(١) ذكر هذه الأخبار السيوطيُّ في الدر ٦/ ٣١٠-٣١١.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٨، والنكت والعيون ٦/ ١٩٢.
(٣) تاج العروس (نشط).
(٤) ٨/ ٤١٩.

انحلالُها إذا جُذِبت، كعقدة التِّكَّة، فإذا جُعِلت «الناشطات» من النشط بهذا المعنى كان أوفقَ للإشارة إلى الرفق.

والعطف مع اتحاد الكلِّ لتنزيلِ التغايُر العنوانيِّ منزلةَ التغاير الذاتي، كما مرَّ غير مرة، للإشعار بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأوصاف المعدودة من مُعظَّمات الأمور حقيقٌ بأن يكونَ على حياله مَناطاً لاستحقاقِ موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمامِ الأوصاف الأُخرِ إليه.

ولو جعلتَ «النازِعات» ملائكةَ العذاب، و«الناشطات» ملائكةَ الرحمة، كان العطفُ للتغايُر الذاتي على ما هو الأصل.

والفاءُ في الأخيرَين للدلالة على ترتُّبهما على ما قبلَهما بغير مُهلة. وانتصابُ «نشطاً» و«سبحاً» و«سبقاً» على المصدرية كانتصابِ «غرقاً»، وأما انتصابُ «أمراً» فعلى المفعولية لـ «المدبِّرات» لا على نزع الخافض، أي: بأمرٍ منه تعالى، كما قيل، وزُعم أنه الأولى. وتنكيره للتهويل والتفخيم.

وجوّز أن يكون «غرقاً» مصدراً مؤوَّلاً بالصفة المشبَّهة، ونصبُه على المفعولية أيضاً لـ «النازعات»، أو صفةً للمفعول به لها، أي: نفوساً غَرِقةً في الأجساد. وحمل بعضُهم غرقَها فيها بِشدَّةِ تعلُّقها بها وغلبةِ صفاتها عليها، وكأنَّ ذلك مبنيٌّ على تجرُّدِ الأرواح، كما ذهب إليه الفلاسفة وبعضُ أجلَّةِ المسلمين.

هذا، ولم نقف على نصٍّ في أنَّ الملائكة حالَ قبض الأرواح وإخراجها هل يدخلون في الأجساد أم لا؟ وظاهرُ تفسير «الناشطات» أنَّهم حالةَ النزع خارجَ الجسد، كالواقف، و«السابحات» دخولُهم فيه لإخراجها على ما قيل، وأنتَ تعلم أنَّ السبحَ ليس على حقيقته، ولا مانعَ من أن يُرادَ به مجرَّدُ الاتصال ونحوِه مما لا تَوقُّفَ له على الدخول.

وجوّز أن يكونَ المرادُ بـ «السابحات» وما بعدها طوائف من الملائكة يسبَحون في مُضيِّهم، فيسبقون فيه إلى ما أمروا به من الأمور الدنيوية والأخروية، فيدبِّرون أمرَه من كيفيته وما لا بدَّ منه فيه. ويعمُّ ذلك ملائكةَ الرحمة وملائكةَ العذاب، والعطفُ عليه لتغايُر الموصوفات كالصفات.

وأيًّا ما كان فجوابُ القَسَم محذوفٌ يدلُّ عليه ما بعدُ من أحوال القيامة، ويلوِّح إليه الأقسامُ المذكورةُ، والتقدير: والنازعات.. إلخ، لتُبعَثُنَّ، وإليه ذهب الفراءُ[١] وجماعةٌ.

وقيل: أقسامٌ بالنجوم السيَّارة التي تَنزع، أي: تسير، من نَزَعَ الفَرَسُ: إذا جرى من المشرق إلى المغرب غَرقاً في النزع وجدًّا في السير، بأن تقطع الفلكَ على ما يبدو للناس حتى تنحطَّ في أقصى الغرب، وتَنشِط من بُرج إلى بُرج، أي: تخرُج، من: نَشَط الثورُ: إذا خَرَج من مكانٍ إلى مكانٍ آخَر، ومنه قولُ هِمْيان بن قُحافة:

أرى هُمومي تَنشِط المَناشِطا ... الشامَ بي طَوْراً وطَوراً واسطاً[٢]

وتسبح في الفلك فيسبق بعضُها في السير لكونه أسرعَ حركةً، فتدَبِّرُ أمراً نِيط بها كاختلاف الفصول، وتقدير الأزمنة، وظهورِ مواقيت العبادات والمعاملات المؤجَّلة، ولَمَّا كانت حركاتُها من المشرق إلى المغرب سريعةً قسريةً وتابعةً لحركة الفلك الأعظم ضرورةً، وحركاتُها من بُرج إلى برج بإراداتها من غير قسرٍ لها وهي غيرُ سريعةٍ، أُطلِق على الأولى النزعُ لأنه جذبٌ بشدَّةٍ، وعلى الثانية النشطُ لأنه برفقٍ.

ورُوي حملُ «النازعات» على النجوم عن الحسن وقتادة والأخفش وابن كيسان وأبي عبيدة[٣]. وحَملُ «الناشطات» عليها عن ابن عباس والثلاثة الأوَل[٤]، وحملُ

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣١.

(٢) البيت في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٢، وتهذيب اللغة ١١/ ٣١٣، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٠، برواية: أمست، في الشطر الأول. وهو في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، والبحر ٨/ ٤١٧ برواية المصنف. ونسبه الجميع لهميان بن قحافة، وتحرف في النكت والعيون إلى: همام. وفي المحرر الوجيز إلى: همان. وهو: هِميان بن قُحافة أحد بني عُوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويقال: أحد بني عامر بن عبيد بن الحارث، راجزٌ محسنٌ إسلاميٌّ، وكان في الدولة الأموية. المؤتلف والمختلف ص٣٠٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، والبحر ٨/ ٤١٩. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤.

(٤) يريد بهم الحسن وقتادة والأخفش، المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، والبحر ٨/ ٤١٩.

«السابحات» عليها عن الأولين(١). وحملها أبو روق على الليل والنهار والشمس والقمر منها، و«المدبرات» عليها عن معاذ(٢). وإضافة التدبير إليها مجازٌ.

وقيل: أقسامٌ بالنفوس الفاضلة حالةَ المفارقة لأبدانها بالموت، فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً ـ أي: نزعاً شديداً من: أغرقَ النازعُ في القوس: إذا بلغ غايةَ المدِّ حتى ينتهي إلى النصْل ـ لعُسرِ مفارقتها إياها حيث أَلِفَتْه وكان مطيَّةً لها لاكتساب الخير ومظنةً لازدياده، فتنشَط شوقاً إلى عالم الملكوت وتسبَح به، فتسبق إلى حظائر القُدس فتصير لشَرَفها وقوَّتها من المدبِّرات، أي: مُلحَقةً بالملائكة، أو تصلُح هي لأن تكون مدبِّرةً، كما قال الإمام: إنَّها بعد المفارقة قد تظهر لها آثارٌ وأحوالٌ في هذا العالم، فقد يرى المرءُ شيخَه بعد موته فيُرشده لِمَا يهمُّه. وقد نُقِل عن جالينوس أنه مَرِض مرضاً عجز عن علاجه الحكماءُ، فوُصِف له في منامه علاجُه، فأفاق وفعله فأفاق. وقد ذكره الغزالي(٣). ولذا قيل ـ وليس بحديث كما تُوهِّم ـ: إذا تحيَّرتم في الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور، أي: أصحابِ النفوس الفاضلة المتوفَّين، ولا شكَّ في أنه يحصل لزائرهم مددٌ روحانيٌّ ببركتهم، وكثيراً ما تنحلُّ عقَدُ الأمور بأنامل التوسُّل إلى الله تعالى بحرمتهم.

وحمله بعضُهم على الأحياء الممتثِلين أمرَ: موتوا قبل أن تموتوا(٤).

وتفسير «النازعات» بالنفوس مرويٌّ عن السدي، إلا أنه قال: هي جماعةُ النفوس تنزع بالموت إلى ربِّها(٥). و«الناشطات» بها عن ابن عباس أيضاً، إلا أنه قال: هي النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج(٦). و«السابقات» بها عن ابن

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١، والبحر ٨/ ٤١٩.

(٢) القولان في المصدرين السابقين، وقول معاذ في النكت والعيون ٦/ ١٩٤.

(٣) التفسير الكبير ٣١/ ٣١، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٨/ ٣١٣.

(٤) قال ابن حجر: هو غير ثابت. وقال القاري: هو من كلام الصوفية. كشف الخفا ٢/ ٣٨٤. وسلف ٢/ ١٧٨.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠.

(٦) البحر ٨/ ٤١٩.

مسعود، إلا أنَّه قال: هي أنفُسُ المؤمنين تسبِق إلى الملائكة عليهم السلام الذين يقبضونها، وقد عاينتِ السرورَ شوقاً إلى لقاء الله تعالى[١].

وقيل: أقسامٌ بالنفوس حالَ سلوكها وتطهيرِ ظاهرها وباطنها بالاجتهاد في العبادة والترقِّي في المعارف الإلهيَّة، فإنها تَنزع عن الشهوات وتنشَط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء، فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات للنفوس الناقصة.

وقيل: أقسامٌ بأنفُس الغُزاة، أو أيديهم تَنزع القسيَّ بإغراق السهام، وتنشَط بالسهم للرمي، وتسبح في البرِّ والبحر، فتسبق إلى حرب العدو فتدبِّر أمرَها. وإسناد السبح وما بعده إلى الأيدي عليه مجازٌ للملابسة.

وحملُ «النازعات» على الغُزاة مرويٌّ عن عطاء، إلا أنه قال: هي النازعات بالقسيِّ وغيرها[٢].

وقيل: بصفاتِ خيلهم، فإنها تنزع في أعنَّتها غرقاً، أي: تمدُّ أعنَّتها مدًّا قويًّا حتى تُلصِقها بالأعناق من غير ارتخائها، فتصير كأنها انغمست فيها، وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر، وتسبح في جريها فتسبق إلى العدوِّ فتُدبِّر أمرَ الظفر. وإسناد التدبير إليها إسنادٌ إلى السبب.

وحملُ «السابحات» على الخيل مرويٌّ عن عطاء أيضاً وجماعةٍ.

ولا يخفى أنَّ أكثر هذه الأقوال لا يليق بشأن جزالة التنزيل، وليس له قوَّةٌ مناسِبةٌ للمقام، ومنها ما فيه قولٌ بما عليه أهل الهيئة المتقدِّمُون من الحركة الإرادية للكوكب، وهي حركته الخاصَّةُ ونحوها مما ليس في كلام السلف ولم يتمَّ عليه برهانٌ، ولذا قال بخلافه المحدثون من الفلاسفة.

وفي حمل «المدبِّرات» على النجوم إيهامُ صحَّةِ ما يزعمه أهلُ الأحكام وجهلةُ المنجِّمين، وهو باطلٌ عقلاً ونقلاً كما أوضحنا ذلك فيما تقدَّم[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٩، والبحر ٨/ ٤١٩.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الصافات.

وكذا في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة إيهامُ صحةِ ما يزعمه كثيرٌ من سَخَفَة العقول من أن الأولياء يتصرَّفون بعد وفاتهم بنحوِ شفاء المريض وإنقاذِ الغريق والنصر على الأعداء، وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد، على معنى أنَّ الله تعالى فوَّض إليهم ذلك، ومنهم مَن خصَّ ذلك بخمسةٍ من الأولياء، والكلُّ جهلٌ وإن كان الثاني أشدَّ جهلاً. نعم لا ينبغي التوقُّف في أنَّ الله تعالى قد يُكرم مَن شاء من أوليائه بعدَ الموت كما يكرمه قبله بما شاء فيُبرئ سبحانه المريضَ ويُنقِذ الغريقَ وينصر على العدوِّ وينزلُ الغيث وكيت وكيت كرامةً له، وربَّما يُظهر عزَّ وجل مَن يُشبِهُه صورةً فتفعل ما سُئل الله تعالى بحرمته مما لا إثمَ فيه استجابةً للسائل، وربما يقع السؤال على الوجه المحظور شرعاً فيُظهِر سبحانه نحو ذلك مكراً بالسائل واستدراجاً له.

ونقل الإمام في هذا المقام عن الغزالي أنه قال: إنَّ الأرواحَ الشريفة إذا فارقت أبدانَها ثم اتفق إنسانٌ مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن، فإنَّه لا يَبعُد أن يحصل للنفس المفارقة تعلُّقٌ بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلِّقة بذلك البدن على أعمال الخير، فتُسمَّى تلك المعاونةُ إلهاماً، ونظيرُه في جانب النفوس الشريرة وسوسة(١). انتهى.

ولم أَرَ ما يشهد على صحَّتِه في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة، وقد ذكر الإمام نفسه في «المباحث المشرقية» استحالةَ تعلُّقِ أكثر من نفسٍ ببدنٍ واحد، وكذا استحالةَ تعلُّق نفسٍ واحدةٍ بأكثر من بدنٍ، ولم يتعقَّب ما نقله هنا، فكأنه فَهِم أنَّ التعلُّقَ فيه غيرُ التعلُّقِ المستحيل، فلا تغفل.

وقال في وجه حمل المذكورات على الملائكة: إنَّ الملائكة عليهم السلام لها صفاتٌ سلبيةٌ، وصفاتٌ إضافيةٌ، أما الأولى فهي أنَّها مبرَّأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة، والموت والهرم والسقم والتركيب، والأعضاء والأخلاط والأركان، بل هي جواهرُ روحانيةٌ مبرَّأةٌ عن هذه الأحوال، فـ «النازعاتِ غَرْقاً»

---

(١) التفسير الكبير ٣١/ ٣١.

إشارةٌ إلى كونها منزوعةً عن هذه الأحوال نزعاً كليًّا من جميع الوجوه على أنَّ الصيغة للنسبة. و«الناشطات نشْطاً» إشارةٌ إلى أنَّ خروجَها عن ذلك ليس كخروج البشر على سبيل الكلفة والمشقَّة، بل بمقتضَى الماهية، فالكلمتان إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية.

وأما صفاتُهم الإضافية فهي قسمان:

الأول: شرحُ قوَّتهم العاقلة وبيانُ حالهم في معرفة مُلك الله تعالى وملكوته سبحانه والاطِّلاع على نورِ جلاله جلَّ جلالُه، فوصفهم سبحانه في هذا المقام بوصفين:

أحدهما: «والسابحات سبحاً» فهم يَسبَحون من أول فطرتهم في بحارِ جلالِه تعالى، ثم لا منتهى لسبحهم؛ لأنَّه لا منتهى لعظمة الله تعالى وعلوِّ صمديته ونور جلاله وكبريائه، فهم أبداً في تلك السباحة.

وثانيهما: «فالسابقات سبقاً» وهو إشارةٌ إلى تفاوُتِ مراتبهم في درجات المعرفة وفي مراتب التجلِّي.

والثاني: شرحُ قوَّتهم العامة وبيانُ حالهم فيها، فوصفهم سبحانه في هذا المقام بقوله تعالى: «والمدبرات أمرا» ولَمَّا كان التدبير لا يتمُّ إلا بعدَ العلم قدَّم شرح القوَّة العاقلة على شرح القوَّة العاملة[1]. انتهى.

وهو على ما في بعضه من المنع ـ ليس بشديد المناسبة للمقام.

ونقل غيرُ واحد أقوالاً غيرَ ما ذُكر في تفسير المذكورات، فعن مجاهد: «النازعات» المنايا، تنزع النفوسَ. وحكى يحيى بن سلام أنها الوحشُ تَنزع إلى الكلأ. وعن الأول تفسيرُ «الناشطات» بالمنايا أيضاً. وعن عطاء تفسيرُها بالبقر الوحشية وما يَجري مجراها من الحيوان الذي يَنشِط من قطرٍ إلى قطرٍ. وعنه أيضاً تفسيرُ «السابحات» بالسُّفُن. وعن مجاهد تفسيرُها بالمنايا تسبح في نفوس الحيوان.

(١) التفسير الكبير ٣١/ ٢٨-٢٩.

وعن بعضهم تفسيرها بالسحاب، وعن آخر تفسيرها بدوابِّ البحر. وعن بعضٍ تفسيرُ «السابقات» بالمنايا على معنى أنها تسبِق الآمالَ[1].

وعن غير واحدٍ تفسير «المدبِّرات» بجبريل يدبِّر الرياحَ والجنودَ والوحيَ، وميكالَ يدبِّر القطرَ والنباتَ، وعزرائيلَ يدبِّر قبضَ الأرواح، وإسرافيل يدبِّر الأمر المنزَّل عليهم، لأنه ينزل به ويدبِّر النفخَ في الصور[2]. والأكثرون تفسيرُها بالملائكة مطلقاً، بل قال ابن عطية: لا أحفظ خلافاً في أنها الملائكة[3].

وليس في تفسير شيء مما ذكر خبرٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ فيما أعلم، وما ذكرتُه أولاً هو المرجَّح عندي نظراً للمقام، والله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ منصوبٌ بالجواب المضمَر، والمراد بـ «الراجفة»: الواقعةُ أو النفخةُ التي تَرجُف الأجرامُ عندها، على أنَّ الإسناد إليها مجازيٌّ؛ لأنها سببُ الرجف، أو التجوُّزِ في الطرف بجعلِ سببِ الرجف راجفاً.

وجوَّز أن تُفسَّر «الراجِفَةُ» بالمحرِّكة، ويكون ذلك حقيقةً؛ لأنَّ: رَجَفَ، يكون بمعنى: حرَّك وتحرَّك، كما في «القاموس»[4]، وهي النفخة الأولى.

وقيل: المراد بها الأجرام الساكنة التي تشتدُّ حركتُها حينئذٍ كالأرض والجبال، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤] وتسميتُها راجفة باعتبار الأول، ففيه مجازٌ مرسلٌ، وبه يتضح فائدةُ الإسناد.

وقوله تعالى: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ أي: الواقعة أو النفخةُ التي تردف وتتبَع الأولى، وهي النفخة الثانية. وقيل: الأجرام التابعةُ، وهي السماء والكواكب، فإنها تنشقُّ وتنتثر بعدُ. والجملة حالٌ من «الراجفة»، مصحِّحةٌ لوقوع اليوم ظرفاً للبعث لإفادتها امتدادَ الوقت وسعتَه، حيثُ أفادت أنَّ اليومَ زمانُ الرجفة المقيَّدةِ

---

(١) ينظر لهذه الأقوال: تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧-٦٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٢-١٩٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠-٤٣١، والبحر ٨/ ٤١٩.

(٢) زاد المسير ٩/ ١٧، والبحر ٨/ ٤١٩.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١.

(٤) مادة (رجف).

بتبعيَّةِ «الرادفة» لها، وتبعيَّةُ الشيء الآخَرَ فرعُ وجودِ ذلك الشيء، فلا بدَّ من امتدادِ اليوم إلى «الرادفة»، واعتبارُ امتداده مع أنَّ البعثَ لا يكون [إلا][(١)] ـ عند «الرادفة» ـ أعني: النفخةَ الثانيةَ، وبينَها وبينَ الأولى أربعون ـ لتهويل اليوم ببيانِ كونه موقعاً لداهيتَيْن عظيمتَيْن.

وقيل: «يومَ تَرْجُف» منصوبٌ بـ «اذكر»، فتكون الجملة استئنافاً مقرِّراً لمضمونِ الجواب المضمَر، كأنه قيل لرسول الله ﷺ: اذكُر لهم يومَ النفختين، فإنه وقتُ بعثهم.

وقيل: هو منصوبٌ بما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ أي: يومَ ترجُف وَجَفَتِ القلوبُ، أي: اضطربت، يقال: وَجَفَ القلبُ وَجيفاً: اضطربَ من شدَّة الفَزَع، وكذلك وَجَب وَجِيباً.

ورُوي عن ابن عباس أنَّ «واجفة» بمعنى: خائفة، بلغةِ همدان[(٢)].

وعن السديّ: زائلةٌ عن مكانها[(٣)].

ولم يُجعَل منصوباً بـ«واجفة»؛ لأنه نَصَبَ ظرفَه، أعني «يومئذ»، والتأسيسُ أولى من التأكيد فلا يُحمَل عليه، كيف وحذفُ المضافِ وإبدالُ التنوين مما يأباه أيضاً.

ورفع «قلوبٌ» على الابتداء، و«يومئذ» متعلِّقٌ بـ «واجفة»، وهي الخبر على ما قيل، وهو الأظهر كما في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٤] وجاز الابتداء بالنكرة لأنَّ تنكيرَها للتنويع، وهو يقوم مقامَ الوصف المخصِّص، نعم التنويعُ في النظير أظهرُ لذكر المقابل، بخلاف ما نحن فيه، ولكن لا فرقَ بعدَ ما ساق المعنى إليه، وإن شئتَ فاعتبر ذلك للتكثير كما اعتُبِر في: شَرٌّ أهرَّ ذا ناب[(٤)].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. ينظر الكشاف ٤/ ٢١٢، وتفسير أبي السعود ٩/ ٩٦، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٩، والكلام من البحر ٨/ ٤١٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٣.

(٤) يقال: أهرَّه: إذا حمله على الهرير، و«شرٌّ» رفع بالابتداء، وهو نكرة، وشرط النكرة أن لا يبتدأ بها حتى تخصص، وإنما جاز ذلك لأن المعنى: ما أهرّ ذا ناب إلّا شرٌّ. وذو =

وقيل: «واجفة» صفةُ «قلوبٌ» مصحِّحة للابتداء بها.

وقولُه تعالى: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ أي: أبصارُ أهلِها ذليلةٌ من الخوف، ولذلك أضافَها إليها، فالإضافة لأدنى ملابسةٍ. وجوِّز أن يرادَ بالأبصار البصائرُ، أي: صارت البصائر ذليلةً لا تُدرِك شيئاً، فكنَى بذُلِّها عن عدم إدراكها، لأنَّ عزَّ البصيرة إنما هي بالإدراك. وبُحِث في كون القلوب غيرَ مُدرِكة يومَ القيامة. وأجيب بأنَّ المرادَ شدَّةُ الذهول والحيرة = جملةٌ من مبتدأ وخبرٍ في محلِّ رفعٍ على الخبرية لـ «قلوب».

وتعقِّب بأنه قد اشتهر أنَّ حقَّ الصفة أن تكونَ معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند السامع، حتى قال غيرُ واحدٍ: إنَّ الصفات قبلَ العلم بها أخبارٌ، والأخبار بعد العلم بها صفاتٌ، فحيث كان ثبوتُ الوجيف وثبوتُ الخشوع لأبصارِ أصحابِ القلوب سواء في المعرفة والجهالةِ كان جَعْلُ الأول عنوانَ الموضوع مسلَّمَ الثبوت مفروغاً عنه، وجَعْلُ الثاني مخبراً به مقصودَ الإفادة تحكُّماً بحتاً، على أنَّ الوجيفَ الذي هو عبارةٌ عن اضطراب القلب وقَلَقِه من شدَّة الخوف والوَجَلِ أشدُّ من خشوع البصر وأهولُ، فجَعْلُ أهونِ الشرَّين عمدةً وأشدِّهما فضلةً مما لا عهدَ له في الكلام.

وأيضاً فتخصيصُ الخشوع بقلوبٍ موصوفةٍ بصفة معيَّنةٍ غيرِ مُشعِرةٍ بالعموم والشمول تهوينٌ للخطب في موقع التهويل. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ «المشتهر» و«ما قاله غيرُ واحد» غيرُ مجمع على اطِّراده، وأنَّ بعضَ ما اعترض به يندفع على ما يُفهِمه كلامُ بعض الأجلة من جواز جعل المفرد خبراً والجملةِ بعدُ صفةً، لكنه بعيدٌ، وما قيل على الأول من أنَّ جعلَ التنوين للتنويع مع إلباسه مخالفٌ للظاهر، وكونه كالوصف معنًى تعسُّف = خروج[1] عن الإنصاف.

= الناب: السبع. ويضرب به المثل في ظهور أمارات الشرِّ ومخايله. مجمع الأمثال ١/ ٣٧٠، وقد سلف ٢٤/ ١٢٠.

(١) قوله: خروج، هو خبر «ما» في قوله: وما قيل على الأول. . .

وزعم ابن عطية أنَّ النكرةَ تخصَّصت بقوله تعالى: «يومئذ»[١]. وتعقِّب بأنه لا تتخصّصُ الأجرامُ[٢] بظروف الزمان.

وقدَّر عصام الدين جوابَ القَسَم: ليأتينَّ، وقال: نحن نقدِّره كذلك ونجعل «يوم تَرجُف» فاعلاً له مرفوعَ المحلِّ، ونجعل «تتبعها الرادفة» صفةً للراجفة بجَعْلِها في حكم النكرة، لكون التعريف للعهد الذهني، نحو:

أمُـرُّ عـلـى الـلـئـيـم يـسـبُّـنـي[٣]

وفيه ما فيه، وفيه ما فيه[٤].

وقيل: إنَّ الجوابَ «تتبعها الرادفة»، و«يومَ» منصوبٌ به، ولامُ القَسَم محذوفةٌ، أي: لَيومَ كذا تتبعها الرادفة. ولم تدخل نون التأكيد لأنَّه قد فصل بين اللام المقدَّرة والفعل. وليس بذاك.

وقال محمد بن عليٍّ الترمذي[٥]: إنَّ جوابَ القَسَم «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى». وهو كما ترى.

ومثله ما قيل: هو «هل أتاك حديث موسى» لأنَّه في تقدير: قد أتاك.

وقال أبو حاتم: على التقديم والتأخير، كأنه قيل: فإذا هم بالساهرةِ والنازعاتِ. وخطَّأه ابن الأنباري بأنَّ الفاء لا يُفتَتح بها الكلامُ.

وبالجملة الوجهُ الوجيه هو ما قدَّمنا.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾ حكايةٌ لِمَا يقوله المنكرون للبعث، المكذِّبون بالآيات الناطقة به، إثْرَ بيانٍ وقوعه بطريق التوكيد القَسَميِّ وذكرِ مقدِّماته الهائلة وما يَعرِض عندَ وقوعها للقلوب والأبصار، أي: يقولون إذا قيل

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١.

(٢) تحرف في (م) إلى: بالإجرام. والمثبت من الأصل والبحر ٨/ ٤٢٠، والكلام منه.

(٣) وعجزه: فمضيتُ ثمةَ قلتُ لا يعنيني، وسلف ٧/ ٤٦٤.

(٤) كذا وردت العبارة مكررة في الأصل و(م)، وكتب فوقها في الأصل: صح.

(٥) كما في البحر ٨/ ٤٢٠، وعنه نقل المصنف ما سيرد من أقوال.

لهم: إنكم تُبعَثون، منكرين له متعجِّبين منه: أئنَّا لمردودون بعدَ موتنا في الحافرة؟! أي: في الحالة الأولى، يعنون الحياةَ كما قال ابن عباس وغيرُه.

وقيل: إنه تعالى شأنه لَمَّا أقسم على البعث وبيَّن ذُلَّهم وخوفَهم ذكر هنا إقرارَهم بالبعث وردَّهم إلى الحياة بعدَ الموت، فالاستفهامُ لاستغرابِ ما شاهدوه بعدَ الإنكار، والجملة مستأنَفةٌ استئنافاً بيانيًّا لِمَا يقولون إذ ذاك.

والظاهرُ ما تقدَّم، وأنَّ القولَ في الدنيا، وأيًّا ما كان فهو من قولهم: رَجَعَ فُلانٌ في حَافِرته، أي: طريقته التي جاء فيها فَحَفَرها، أي: أثَّر فيها بمشيه، والقياس: المحفورةُ، فهي إما بمعنى: ذاتِ حَفْرٍ، أو الإسنادُ مجازيٌّ، أو الكلامُ على الاستعارة المكنية بتشبيه القابل بالفاعل وجَعْلِ الحافريةِ تخييلاً، وذلك نظيرُ ما ذكروا في: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧].

ويقال لكلِّ مَن كان في أمرٍ فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته، وعليه قوله:

أحافِرةً على صَلَعٍ وشَيْبٍ معاذَ الله من سَفَهٍ وعارِ[(١)]

يريد: أأَرْجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والتصابي بعدَ أن شبتُ؟! معاذَ الله من ذاك سفهاً وعاراً. ومنه المثل: النقد عند الحافرة. فقد قيل: الحافرةُ فيه بمعنى الحالة الأولى، وهي الصفقة، أي: النقدُ حالَ العقد، لكن نقل الميداني[(٢)] عن ثعلب أنَّ معناه: النقدُ عند السَّبْق. وذلك أنَّ الفرس إذا سَبَقَ أخذَ الرهنَ، والحافرةُ: الأرضُ التي حَفَرَها السابقُ بقوائمه على أحد التأويلات.

وقيل: «الحافرةُ»: جمعُ: الحافر، بمعنى القَدَم، أي: يقولون أئنا لمردودون

(١) البيت في أدب الكاتب ص٤١٥، وإصلاح المنطق ص٣٢٧، والصحاح (حفر)، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢، والبحر ٨/ ٤١٧، وهو في تفسير الطبري برواية: طيش. بدل: عار. وصَلِعَ: انحسر شعر مقدم رأسه. مختار الصحاح (صلع)، ونصب «حافرة» على أنه اسم في معنى المصدر أقيم مقامه، والتقدير: أرُجوعاً إلى أول أمري؟ يريد: أأرجع رجوعاً؟ فحذف الفعلَ واكتفَى بمصدره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٦٧.

(٢) في مجمع الأمثال ٢/ ٣٣٧.

أحياءً نمشي على أقدامنا ونَطَأ بها الأرضَ؟! ولا يخفى أنَّ أداء اللفظ هذا المعنى غيرُ ظاهر.

وعن مجاهد: «الحافرة»: القبورُ المحفورة، أي: لمردودون أحياء في قبورنا[١]. وعن زيد بن أسلم: هي النار[٢]. وهو كما ترى.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: «في الحَفِرَة» بفتح الحاء وكسر الفاء[٣]، على أنه صفةٌ مشبَّهة من حَفِر اللازم كَعِلم، مطاوِع: حُفِر، بالبناء للمجهول، يقال: حُفِرَت أسنانُه فَحفِرَت حَفَراً بفتحتين: إذا أثَّر الإكالُ في أسناخها[٤] وتغيَّرت، ويرجع ذلك إلى معنى المحفورة. وقيل: هي الأرض المنتِنَة المتغيِّرة بأجساد موتاها.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ تأكيدٌ لإنكار البعث بذكر حالةٍ منافيةٍ له، والعاملُ في «إذا» مضمَرٌ يدلُّ عليه «مردودون»، أي: أئذا كنَّا عظاماً باليةً نُرَدُّ ونُبعَث مع كونها أبعدَ شيء من الحياة.

وقرأ نافع وابن عامر: «إذا كنّا» بإسقاط همزة الاستفهام[٥]، فقيل: يكون خبرَ استهزاءٍ بعدَ الاستفهام الإنكاريِّ. واستُظهِر أنه متعلِّقٌ بـ «مردودون».

وقرأ عمر وأبيٌّ وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر: «ناخِرة» بالألف[٦]، وهو كـ «نَخِرة» من نَخِر العظمُ، أي: بَلِي وصار أجوفَ تَمرُّ به الريحُ فيُسمَع له نَخِير، أي: صوتٌ، وقراءةُ الأكثرين أبلغ، فقد صرَّحوا بأنَّ فَعِلاً أبلغُ من فاعِل، وإن كانت حروفُه أكثرَ، وقولهم: زيادة المبنى

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٧١.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحتسب ٢/ ٣٥٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٠.
(٤) الأسناخ: جمع سِنْخ، بكسر المهملة: منبت الأسنان. القاموس (سنخ).
(٥) وهي أيضاً قراءة الكسائي ويعقوب. ينظر التيسير ص١٣٢-١٣٣، والنشر ١/ ٣٧٤.
(٦) التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧ عن الأخوين (حمزة والكسائي) وأبي بكر، والكلام من البحر ٨/ ٤٢٠.

تدلُّ على زيادة المعنى أغلبيٌّ، أو إذا اتَّحد النوعُ، لا إذا اختلف، كأنْ كان «فاعِل» اسمَ فاعل، و«فَعِل» صفةً مشبهةً.

نعم تلك القراءةُ أوفق برؤوس الآي، واختيارها لذلك لا يفيد اتحادَها مع الأخرى في المبالغة كما وهم.

وإلى الأبلغية ذهب المعظم، وفُسِّرت النخرة عليه بالأشدِّ بلًى، وقال عمرو بن العلاء: النَّخِرة التي قد بَلِيَت، والناخرة التي لم تَنخَر بعدُ[١]. ونُقل اتحادُ المعنى عن الفراء وأبي عبيدة[٢] وأبي حاتم وآخرين.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ حكايةٌ لكفرٍ آخَرَ لهم متفرِّعٍ على كفرهم السابق، ولعلَّ توسيطَ «قالوا» بينهما للإيذان بأنَّ صدورَ هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطِّراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمرِّ صدورُه عنهم في كافَّة أوقاتهم، حسبما ينبئ عنه حكايتُه بصيغة المضارع. أي: قالوا بطريق الاستهزاء مُشيرين إلى ما أنكروه من الردِّ في الحافرة مُشعرِين بغاية بُعدِه عن الوقوع: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: ذاتُ خُسْرٍ، أو: خاسرٌ أَصحابُها، أي: إذا صحَّت تلك الرجعةُ فنحن خاسرون لتكذيبنا بها، وأبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته في صورةٍ ما يغلب على الظنِّ وقوعُه لمزيد الاستهزاء. وقال الحسن: «خاسرة»: كاذبة، أي: [ليست] بكائنة[٣]، فكأن المعنى: تلك إذا كنَّا عظاماً نَخِرَةً كَرَّةٌ ليست بكائنة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ تعليلٌ لمقدَّرٍ يقتضيه إنكارُهم ذلك، فإنَّه لَمَّا كان مداره استصعابَهم الكرَّةَ رُدَّ عليهم ذلك فقيل: لا تحسبُوا تلك الكرَّة صعبةً، فإنَّما هي صيحةٌ واحدةٌ، أي: حاصلةٌ بصيحةٍ واحدةٍ وهي النفخة الثانية، عُبِّر عنها بها تنبيهاً على كمال اتصالها بها كأنَّها عينُها.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢.
(٢) قول الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣١، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥.
(٣) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢، والبحر ٨/ ٤٢١، وتحرفت كلمة: بكائنة، في البحر إلى: بكافية.

وقيل: «هي» راجعٌ إلى «الرادفة»، وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ حينئذٍ بيانٌ لترتُّبِ الكرَّة على الزجرة مفاجأةً، أي: فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها، وعلى الأول بيانٌ لحضورهم الموقفَ عقيبَ الكرَّة التي عُبِّر عنها بالزجرة.

و«الساهرة» قيل: وجهُ الأرض والفلاةُ، وأنشدوا قول أمية ابن أبي الصلت:

وفيها لحمُ ساهِرةٍ وبحرٍ ... وما فاهُوا به أبداً مُقيمُ[(١)]

وفي «الكشاف»: الأرض البيضاء ـ أي: التي لا نباتَ فيها ـ المستويةُ، سمِّيت بذلك لأنَّ السرابَ يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرةٌ: جاريةُ الماء، وفي ضدِّها: نائمة؛ قال الأشعث بن قيس:

وساهرةٍ يُضحي السرابُ مجلِّلاً ... لأقطارِها قد جُبْتُها مُتلثِّما[(٢)]

أو لأنَّ سالكها لا ينام خوفَ الهَلَكة[(٣)]. وفي الأول مجازٌ على المجاز، وعلى الثاني السهرُ على حقيقته، والتجوُّز في الإسناد.

وحكى الراغبُ فيها قولين: الأول: أنَّها وجهُ الأرض. والثاني: أنَّها أرضُ القيامة. ثم قال: وحقيقتُها: التي يكثُر الوطءُ بها، فكأنها سَهِرَت من ذلك، إشارةً إلى نحو ما قال الشاعر:

تحرَّكَ يَقظانُ التُّرابِ ونَائِمُهْ[(٤)]

وروى الضحاك عن ابن عباس أنَّ الساهرةَ أرضٌ من فضَّةٍ لم يُعصَ الله تعالى

---

(١) ديوان أمية ص١٢١، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٥، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦، والبحر ٨/ ٤١٧، وعند الجميع: لَهُمُ، بدل: أبداً.

(٢) البيت في الكشاف ٤/ ٢١٣، والدر المصون ١٠/ ٦٧٤، وهو في تفسير القرطبي ٢٢/ ٥٣ بلفظ: جِئْتها. بدلَ: جُبْتُها.

(٣) الكشاف ٤/ ٢١٣.

(٤) مفردات الراغب (سهر)، وصدر البيت: إذا نحن سِرْنا بينَ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ، وهو في الأغاني ١٤/ ٣٨٦، والحماسة البصرية ١/ ٨، لحريث بن عناب الطائي، وفي أساس البلاغة (يقظ) دون نسبة.

عليها قطُّ، يَخلُقها عزَّ وجلَّ حينئذٍ. وعنه أيضاً أنها أرضُ مكة.

وقيل: هي الأرض السابعة، يأتي الله تعالى بها فيحاسبُ الخلائق عليها، وذلك حين تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض.

وقال وهب بن منبه: جبلٌ بالشام يمدُّه الله تعالى يومَ القيامة لحشر الناس.

وقال أبو العالية وسفيان: أرضٌ قريبةٌ من بيت المقدس.

وقيل: «الساهرة» بمعنى الصحراء على شفير جهنم.

وقال قتادة: هي جهنم لأنه لا نومَ لمن فيها[1].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ كلامٌ مستأنَفٌ واردٌ لتسلية رسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتهديدِهم عليه بأن يُصيبَهم مثلُ ما أصاب مَن كان أقوى منهم وأعظم.

ومعنى «هل أتاك» إن اعتُبِرَ أنَّ هذا أولُ ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام = ترغيبٌ له ﷺ في استماع حديثه، كأنَّه قيل: هل أتاك حديثُه؟ أنا أُخْبرك به.

وإن اعتُبِر إتيانُه قبلَ هذا وهو المتبادرُ من الإيجاز في الاقتصاص = أليس قد أتاك حديثُه. وليس «هل» بمعنى «قد» على شيء من الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ ظرفٌ للحديث لا للإتيان لاختلافِ وقتَيْهما. وجُوِّز كونُه مفعولَ: اذكر، مقدَّراً. وتقدَّم الكلامُ في «الواد المقدس» واختلاف القراء في «طوى»[2].

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول، والتقديرُ: وقال له أو قائلاً له: اذهب.. إلخ. وقيل: هو تفسيرٌ للنداء، أي: ناداه: اذهب. وقيل: هو على حذف «أنْ» المفسِّرة، يدلُّ عليه قراءةُ عبد الله: «أن اذْهَبْ»[3] لأنَّ في النداء معنى القول.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ١٩٦-١٩٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٣، والبحر ٨/ ٤٢١.
(٢) عند تفسير الآية (١٢) من سورة طه.
(٣) الكشاف ٤/ ٢١٣، وتفسير الرازي ٣١/ ٣٩.

وجُوِّز أن يكونَ بتقدير «أن» المصدرية قبلَها حرفُ جرٍّ.

﴿إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ تعليلٌ للأمر أو لوجوب الامتثال به.

﴿فَقُلْ﴾ بعد ما أتيتَه: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: هل لك ميلٌ إلى أن تَتزكَّى، فـ«لك» في موضع الخبر لمبتدأ محذوفٍ، و«إلى أن تزكى» متعلِّقٌ بذلك المبتدأ المحذوف، ونحوُه قولُ الشاعر:

فهل لكم فيها إليَّ فإنَّني ... بصيرٌ بما أعيا النِّطاسِيَّ حِذْيَما[1]

قد يقال: هل لك في كذا. فيؤتى بـ«في» ويقدَّر المبتدأ: رغبةٌ، ونحوُه مما يتعدَّى بها. ومنهم من قدَّره هنا: رغبةٌ، لأنها تتعدَّى بها أيضاً.

وقال أبو البقاء: لَمَّا كان المعنى: أدعوك، جيء بـ«إلى»[2]. ولعلَّه جَعَلَ الظرفَ متعلِّقاً بمعنى الكلام أو بمقدَّرٍ يدلُّ عليه.

و«تزكَّى» بحذف إحدى التاءين، أي: تَتَطَهَّرُ من دَنَس الكفر والطغيان.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو بخلافٍ: «تَزَّكَّى» بتشديد الزاي[3]، وأصلُه كما أشرنا إليه: تَتزكَّى، فأدغمت التاءُ الثانية في الزاي.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أرشِدَكَ إلى معرفته عز وجل فتعرفه ﴿فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ إذ الخشية لا تكون إلا بعدَ معرفته؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وجَعَلَ الخشيةَ غايةً للهداية؛ لأنها مِلاكُ الأمر، مَن خَشِيَ الله تعالى أتى منه كلُّ خير، ومَن أَمِنَ اجْتَرأ على كلِّ شرٍّ، ومنه قوله ﷺ فيما رواه الترمذي عن

---

(١) البيت في المستقصى ١/ ٢٢٠، ولسان العرب (نطس)، والخزانة ٤/ ٣٧٣ لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص١١١. والشطر الثاني عند الجميع: طبيب بما أعيا...، وهو في البحر ٨/ ٤٢١: بصيرٌ، كما أورده المصنف. والنِّطاسيُّ: دقيقُ النظر في الأمور، ويقال للطبيب: نِطاسِيٌّ، لدقَّةِ نظره في الطبِّ. وحِذْيَم: على حذف المضاف، أي: ابن حِذْيَم: وهو رجل من أطباء العرب.

(٢) الإملاء ٤/ ٤٥١.

(٣) التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٨، عن الحرمين (نافع وابن كثير)، والكلام من البحر ٨/ ٤٢٢.

أبي هريرة: «من خاف أدلج، ومَن أدلج بلغ المنزلَ»(١).

وفي الاستفهام ما لا يخفى من التلطُّف في الدعوة والاستنزال عن العتوِّ، وهذا ضربُ تفصيلٍ لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وتقديم التزكية على الهداية لأنها تخلية.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن جُمَلٍ قد طُويت تعويلاً على تفصيلها في موضعٍ آخرَ، كأنه قيل: فذهب وكان كيت وكيت فأراه. واقتصر الزمخشريُّ في الحواشي على تقدير جملةٍ، فقال: إنَّ هذا معطوفٌ على محذوفٍ، والتقديرُ: فذهب فأراه. لأنَّ قولَه تعالى: «اذهب» يدلُّ عليه، فهو على نحو: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

والإراء إما بمعنى التبصير أو بمعنى التعريف، فإنَّ اللعين حين أبصرها عرفها، وادِّعاءُ سحريَّتها إنما كان إظهاراً للتجلُّد، ونسبتُها إليه عليه الصلاة والسلام بالنظر إلى الظاهر، كما أنَّ نسبتَها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [طه: ٥٦] بالنظر إلى الحقيقة.

والمراد بـ «الآية الكبرى» على ما رُوي عن ابن عباس: قلبُ العصا حَيَّةً، فإنها كانت المقدِّمةَ والأصلَ، والأخرى كالتَّبَع لها. وعلى ما رُوي عن مجاهد: ذلك واليدُ البيضاء، فإنهما باعتبارِ الدلالة كالآية الواحدة، وقد عبَّر عنهما بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ [طه: ٤٢] باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كلٌّ منها آيةٌ بيِّنةٌ لقوم يعقلون.

وجُوِّز أن يراد بها مجموعُ معجزاته عليه السلام، والوحدةُ باعتبار ما ذُكر، والفاءُ لتعقيب أولها، أو مجموعِها باعتبار أولها، وكونُها كبرى باعتبار معجزاتِ مَن قبله من الرسل عليهم السلام، أو هو للزيادة المطلقة. ولا يخفى بُعده. ويزيده بُعداً ترتيبُ حَشْرِ السَّحَرَة بعدُ، فإنَّه لم يكن إلَّا على إراءةِ تَينك الآيتين وإدباره عن العمل بمقتضاهما، وأمَّا ما عداهما من التسع فإنما ظهر على يده عليه السلام بعدَ ما غلب

(١) سنن الترمذي (٢٤٥٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

السَّحَرَة على مهلٍ في نحوٍ من عشرين سنةً.

وزعم غُلاةُ الشيعة أنَّ «الآية الكبرى» عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، أراه إيَّاه متطورةً روحُه الكريمة بأعظم طَور، وهو هَذَيانٌ وراءَ طَور العقل وطور النقل.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بموسى عليه السلام وسمَّى معجزتَه سحراً ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ الله تعالى بالتمرُّد بعد ما عَلم صحَّةَ الأمر ووجوبَ الطاعة أشدَّ عصيانٍ وأقبحَه، حيث اجترأ على إنكار وجودِ ربِّ العالمين رأساً، وكان اللعينُ وقومُه مأمورين بعبادته عز وجل وتَركِ العظمة التي يدَّعيها الطاغيةُ ويَقْبلُها منه فئتُه الباغية، لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر فقط.

وفي جعل متعلَّق التكذيب موسى عليه السلام ومتعلَّق العصيان اللهَ عز وجل ما ليس في جعلهما موسى كما قيل: فكذَّبَ موسى وعصاه = من الذمّ كما لا يخفى.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تولَّى عن الطاعة ﴿يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ساعياً مجتهداً في إبطالِ أمره عليه السلام ومعارَضةِ الآية، و«ثم» لأنَّ إبطالَ ذلك ونقضَه يقتضي زماناً طويلاً. وجُوِّز أن يكون الإدبار على حقيقته، أي: ثم انصرف عن المجلس ساعياً في إبطال ذلك.

وقيل: أدبر يسعى هارباً من الثُّعبان، فإنَّه رُوي أنه لَمَّا ألقى العصا انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً، فوضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، فهرب فرعونُ وأحدث، وانهزم الناسُ مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه.

وفي بعض الآثار أنها انقلبت حيَّة وارتفعت في السماء قَدْر مِيلٍ، ثم انحطَّت مُقبلة نحو فرعون وجعلت تقول: يا موسى، مُرني بما شئتَ. ويقول فرعون: أنشدك بالذي أرسلك إلا أخذتَه. فأخذه فعاد عصاً[١].

وأنت تعلم أنَّ هذا إن كان بعد حشر السَّحَرَة للمعارضة كما هو المشهور، فلا تظهر صحَّةُ إرادته هاهنا إذا أريد بالحشر بعدُ حَشْرُهم، وإن كان بعد التكذيب والعصيان وقبلَ الحشر فلا يظهر تراخيه عن الأولين. نعم، قيل: إنَّ «ثم» عليه

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ١٠٠.

للدلالة على استبعاد إدباره مرعوباً مسرعاً مع زعمه الإلهيَّة.

وقيل: أريد بقوله سبحانه: «ثم أدبر»: ثم أقبل، من قولهم: أقبل يفعل، أي: أنشأ، لكن جُعل الإدبار موضعَ الإقبال تمليحاً وتنبيهاً على أنَّه كان عليه دماراً وإدباراً.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي: فجمع السَّحَرَة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣] وقوله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠] أي: بما يُكاد به من السحَرَة وآلاتهم.

وقيل: جَمَعَ جنودَه. وجُوِّز أن يراد: جَمَعَ أهلَ مملكته.

﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ في المجمع بنفسه، أو بواسطة المنادي، وأُيِّد الأول بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ وعلى الثاني فيه تقديرٌ، أي: فقال: يقول فرعون: أنا ربكم.. إلخ، مع ما في الثاني من التجوُّز.

وفي بعض الآثار أنَّه قام فيهم خطيباً فقال تلك العظيمةَ، وأراد اللعينُ تفضيلَ نفسه على كلِّ مَن يلي أمورَهم.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ النكالُ بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم، وهو التعذيبُ الذي يُنكِّل مَن رآه أو سَمِعه، ويمنعه من تعاطي ما يُفضي إليه، وهو نصب على أنه مصدرٌ مؤكِّد، كـ ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٦] و﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، كأنه قيل: نكَّل الله تعالى به نكالَ الآخرة والأولى، وهو الإحراقُ في الآخرة والإغراقُ والإذلال في الدنيا.

وجوِّز أن يكون نصباً على أنَّه مفعولٌ مطلَقٌ لـ «أخَذَ»، أي: أخذه الله تعالى أَخْذَ نكالِ الآخرة.. إلخ. وأن يكونَ مفعولاً له، أي: أخذه لأجلِ نكالِ.. إلخ. وأن يكون نصباً بنزع الخافض، أي: أخذه بنكال الآخرة والأولى. وإضافته إلى الدارين باعتبارِ وقوعِ نفس الأخذ فيهما، لا باعتبار أنَّ ما فيه من معنى المنع يكون فيهما، فإنَّ ذلك لا يُتصوَّر في الآخرة بل في الدنيا، فإنَّ العقوبة الأخروية تُنكِّل مَن سَمِعها وتمنعه من تعاطي ما يؤدي إليها فيها.

وأن يكون في تأويل المشتقِّ حالاً، وإضافته على معنى «في»، أي: منكِّلاً لمن رآه أو سمع به في الآخرة والأولى. وجُوِّز أن تكون الإضافة عليه لاميَّةً.

وحمل «الآخرة» و«الأولى» على الدارين هو الظاهرُ، ورُوي عن الحسن وابن زيد وغيرهما.

وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك والشعبي أنَّ الآخرةَ قولتُه: «أنا ربكم الأعلى»، والأولى قولته: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. وقيل بالعكس. فهما كلمتان، وكان بينهما ـ على ما قالوا ـ أربعون سنة.

وقال أبو رزين: «الأولى» حالةُ كفره وعصيانه، و«الآخرة» قولته: «أنا رَبُّكُم الأعلى».

وعن مجاهد أنهما عبارتان عن أول معاصيه وآخرِها[1]، أي: نُكِّل بالجميع.

والإضافة على جميع ذلك من إضافة المسبَّب إلى السبب. ومآل من يقول بقبول إيمان فرعون إلى هذه الأقوال وجعلِ ذلك النكال الإغراقَ في الدنيا، وقد قدَّمنا الكلامَ في هذا المقام[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر من قصة فرعون وما فَعَل وما فُعِل به ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لمن شأنُه أن يخشى، وهو مَن مِن شأنِه المعرفةُ، وهذا إما لأنَّ مَن كان في خشية لا يحتاج للاعتبار، أو ليشمَلَ مَن يخشى بالفعل ومَن كان مِن شأنه ذلك على ما قيل.

وقولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ خطابٌ للمخاطبين في جواب القَسَم ـ أعني: لتبعثنَّ ـ من أهل مكة المنكرين للبعث بناءً على صعوبته في زعمهم، بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بيَّن كمالَ سهولته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى بقوله سبحانه: (فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ).

ونصبُ «خَلْقاً» على التمييز، وهو محوَّلٌ عن المبتدأ، أي: أخَلْقُكم بعد موتكم

(١) ينظر ما ورد من أخبار في تفسير الطبري ٢٤/ ٨٤-٨٧، والنكت والعيون ٦/ ١٩٨.
(٢) عند تفسير الآية (٩٢) من سورة يونس.

أشدُّ، أي: أشقُّ وأصعبُ في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ أي: أم خَلْقُ السماء على عِظَمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقولُ عن ملاحظة أدناها.

وقوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ إلخ بيانٌ وتفصيلٌ لكيفية خلقها المستفادِ من قوله تعالى: «أم السماء». وفي عدم ذكر الفاعل فيه وفيما عُطف من الأفعال من التنبيهِ على تعيينه وتفخيم شأنه عز وجل ما لا يخفى.

وقوله سبحانه: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ بيانٌ للبناء، أي: جعلَ مقدارَ ارتفاعها من الأَرض وذهابها إلى سَمت العلوِّ مديداً رفيعاً. وجوِّز أن يفسَّر السمكُ بالثِّخَن، فالمعنى: جعل ثِخَنَها مرتفعاً في جهة العلوِّ، ويقال للثِّخَن: سَمْكٌ، لِمَا فيه من ارتفاع السطح الأعلى عن السطح الأسفل، وإذا لُوحظ هذا الامتدادُ من العلوِّ للسفل قيل له: عُمْقٌ، ونظيرُ ذلك الدَّرَج والدَّرَك.

وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنَّ ارتفاع السماء الدنيا عن الأرض خمس مئة عامٍ، وارتفاع كلِّ سماءٍ عن سماءٍ وثِخَنُ كلٍّ كذلك[١]. والظاهرُ تقديرُ ذلك بالسير المتعارَف، وأنَّ المراد بالعدد المذكورِ التحديدُ دون التكثير، ونحن مع الظاهر إلا أن يمنعَ عنه مانعٌ.

﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ أي: جعلها سواءً فيما اقتضته الحكمة فلم يُخلَّ عز وجل قطعةً منها عمَّا تقتضيه الحكمةُ فيها، ومن ذلك تزيينُها بالكواكب.

وقيل: تسويتُها: جعلُها ملساءَ ليس في سطحها انخفاضٌ وارتفاعٌ.

وقيل: جعلُها بسيطةً متشابهة الأجزاء والشكل، فليس بعضُها سطحاً وبعضُها زاويةً وبعضُها خطًّا. وهو قولٌ بكُريَّتها الحقيقية، وإليه ذهب كثيرٌ وقالوا ـ وحكاه الإمام ـ: لَمَّا ثبت أنَّها محدَثةٌ مفتقرةٌ إلى فاعلٍ مختارٍ فأيُّ ضررٍ في الدين ينشأ من كونها كريَّة[٢]؟

وقيل: تسويتها تتميمُها بما يتمُّ به كمالُها من الكواكب والمتمِّمات والتداوير

(١) سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة الطلاق.

(٢) تفسير الرازي ٣١/٤٧.

وغيرها مما بُيِّن في علم الهيئة، من قولهم: سوَّى أمرَه، أي: أصلحه. أو من قولهم: استوت الفاكهةُ: إذا نَضِجَتِ.

وأنت تعلم أنَّ هذا مع بنائِه على اتحاد السماوات والأفلاك غير معروف في الصدر الأول من المسلمين؛ لعدم وروده عن صاحب المعراج رسول الله ﷺ وعدمِ ظهور الدليل عليه، والأدلةُ التي يذكرها أهلُ الهيئة لتلك الأمور لا يخفى حالُها، ولذا لم يقل بما تقتضيه مخالفوهم من أهل الهيئة اليومَ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعله مُظلِماً؛ يقال: غَطَشَ الليلُ وأغطَشَه اللهُ تعالى، كما يقال: ظَلم وأظلَمَه. ويقال أيضا: أغطش الليلُ، كما يقال: أظلم. وجاء: ليلةٌ غَطْشاءُ، وليلٌ أغطشُ وغَطِشٌ؛ قال الأعشى:

عقرتُ لهم ناقتي مَوهِناً فليلُهم مدلهمٌّ غَطِشْ[1]

وفي «البحر» عن «كتاب اللُّغات في القرآن»: «أغطش»: أظْلَم، بلغة أنمار وأشعر[2].

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ أي: أبرز نهارَها، والضحى في الأصل على ما يفهم من كلام الراغب[3]: انبساطُ الشمس وامتدادُ النهار، ثم سمِّي به الوقتُ المعروفُ وشاع في ذلك، وتُجوِّز به عن النهار بقرينةِ المقابلة. وقيل: الكلامُ على حذف مضافٍ، أي: ضُحَى شمسِها، أي: ضوءَ شمسها، وكنى بذلك عن النهار. والأول أقربُ.

---

(١) لم نقف عليه في ديوان الأعشى، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٢١، والنكت والعيون ٦/ ١٩٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٥٨، وورد في بعض المصادر: وغامرُنا. بدلَ: فليلهم، وفي بعضها: وغامرهم. وفي الجمهرة والمحرر: نحرتُ، بدل: عقرتُ. وقوله: مَوهِناً، بفتح الميم، هو نحو من نصف الليل، أو بعدَ ساعة منه. القاموس (وهن).

(٢) لم نقف عليه في البحر، وذكره ابن عادل في اللباب ٢٠/ ١٤٢.

(٣) في المفردات (ضحى).

وعُبِّر عن النهار بالضحى لأنه أشرفُ أوقاته وأطيبها، وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس في سائرها، فكان أوفقَ لمقامِ تذكير الحجَّة على مُنكري البعث وإعادة الأرواح إلى أبدانها. وقيل: إنه لذلك كان أحقَّ بالذكر في مقام الامتنان.

وإضافة الليل والضحى إلى السماء لأنهما يَحدُثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، وهي سماوية. أو: وهما إنما يحصُلان بسبب حركتها ـ على القول بحركتها ـ لاتحادها مع الفلك. أو: وهما إنما يحصُلان بسبب حركة الشمس في فلكها فيها، على القول بأنَّ السماء والفلك متغايران، والمتحرِّك إنما هو الكوكب في الفلك، كما يقتضيه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وأنَّ الفلك ليس إلا مَجرى الكوكب في السماء.

وقيل: أضيفا إليها؛ لأنهما أولُ ما يظهران منها؛ إذ أول الليل بإقبال الظلام من جهة المشرق، وأولُ النهار بطلوع الفجر وإقبالِ الضياء منه.

وفي «الكشاف»: أضيف الليل والشمس إلى السماء لأنَّ الليل ظلُّها، والشمس هي السراج المُثقَب في جوِّها(١). واعترض بأنَّ الليلَ ظلُّ الأرض. وأجيب بأنه اعتبارٌ بمرأى الناظر كذلك، كما أنَّ زينةَ السماء الدنيا أيضاً اعتبارٌ بمرأى الناظر.

وقيل: إضافتهما إليها باعتبار أنهما إنما يحدُثان تحتَها، وشَمَلا بهذا الاعتبار ما لم يَكَد يخطُر في أذهان العرب من ليلٍ ونهارٍ طولُ كلٍّ منهما ستَّةُ أشهر، وهما ليلُ ونهارُ عرضِ تسعين حيثُ الدَّورُ رَحَوِيٌّ.

وتعقِّب بأنهم قالوا: إنَّ ظلَّ الأرض المخروطيَّ ينتهي إلى فلك الزهرة، وهي في السماء الثالثة، فالحصر غيرُ تامٍّ. وفيه نظر، فتأمَّل.

وبالجملة الإضافةُ لأدنى ملابسةٍ.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الظاهر أنه إشارةٌ إلى ما تقدَّم من خَلْق السماء وإغطاشِ الليل وإخراج النهار، دونَ خَلْق السماء فقط، وانتصابُ «الأرْضَ» بمضمَرٍ، قيل: على

(١) الكشاف ٤/ ٢١٤.

شريطة التفسير. وقيل: تقديرُه: تَذَكَّر. أو: تدبَّر. أو: اذْكُر. وستعلم ما في ذلك إن شاء الله تعالى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ بسطها ومدَّها لسكنى أهلها وتقلُّبِهم في أقطارها، من الدَّحْو أو الدَّحْي بمعنى البسط، وعليه قولُ أمية بن أبي الصلت:

وبثَّ الخلقَ فيها إذْ دَحاها ... فهُم قُطّانُها حتى التَّنادِي[(١)]

وقيل: دحاها: سوَّاها، وأنشدوا قولَ زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمتُ وَجْهِي لمن أسْلَمَتْ ... له الأرضُ تَحمِلُ صَخْراً ثِقالَا

دَحَاها فلمَّا استَوَتْ شَدَّها ... بأيدٍ وأرْسَى عَلَيها الجِبالَا[(٢)]

والأكثرون على الأول، وأنشد الإمام بيتَ زيد فيه[(٣)].

والظاهر أنَّ دَحْوَها بعد خَلْقها، وقيل: مع خَلْقها. فالمراد: خَلَقَها مدحوَّةً. ورُوي الأول عن ابن عباس، ودَفَع به توهُّمَ تعارُضٍ بين آيتين؛ أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أنَّ رجلاً قال له: آيتان في كتاب الله تعالى تُخالِف إحداهما الأخرى. فقال: إنما أُتيتَ من قِبَل رأيك، اقْرأ. قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ حتى بلغ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: ٩-١١] وقوله تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا). قال: خلق الله تعالى الأرضَ قبلَ أن يخلق السماءَ، ثم خلق السماءَ، ثم دحا الأرضَ بعدَ ما خلق السماءَ، وإنما قوله سبحانه: (دَحَاهَا) بَسَطَها[(٤)].

وتعقَّبه الإمام بأنَّ الجسمَ العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي، ويستحيل أن يكون هذا الجسمُ العظيم مخلوقاً ولا يكون ظاهرُه مدحوًّا مبسوطاً[(٥)].

---

(١) ديوان أمية ص٦٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٩، والقرطبي ٢٢/ ٥٩، والبحر ٨/ ٤١٨.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٩٩، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٥٩، والبحر ٨/ ٤١٨، والبيت الثاني في تفسير الرازي ٣١/ ٤٧.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٤٧.

(٤) عزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٦/ ٣١٣، وقد سلف تخريجه ٢٤/ ١٤٨.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ٤٨.

وأجيب أنه لعلَّ مرادَ القائل بخلقها أولاً ثم دحوِها ثانياً خَلْقُ مادتها أولاً ثم تركيبها وإظهارُها على هذه الصورة والشكل مدحوَّةً مبسوطةً، وهذا كما قيل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾(١) [البقرة: ٢٩] أنَّ السماء خُلقت مادتُها أولاً، ثم سُوِّيت وأُظهرت على صورتها اليومَ. وعن الحسن ما يدلُّ على أنها كانت يومَ خُلقت قبل الدحو كهيئة الفِهْر(٢). ويشعر بأنها لم تكن على عظمها اليوم.

وتعقَّبه بعضُهم بشيء آخر، وهو أنه يأبى ذلك قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [البقرة: ٢٩]، فإنه يفيد أنَّ خلْقَ ما في الأرض قبلَ خلق السماوات، ومن المعلوم أنَّ خلق ما فيها إنما هو بعدَ الدحو، فكيف يكون الدحوُ بعد خلق السماوات؟

وأجيب بأنَّ «خَلَقَ» في الآية بمعنى قدَّر، أو: أراد الخلقَ. ولا يمكن أن يُراد به فيها الإيجادُ بالفعل ضرورةَ أنَّ جميع المنافع الأرضيَّة يتجدَّد إيجادُها أولاً فأولاً، سلَّمنا أنَّ المراد الإيجادُ بالفعل لكن يجوز أن يكون المراد خَلْقَ مادَّةِ ذلك بالفعل، ومن الناس مَن حمل «ثُمَّ» على التراخي الرُّتْبي؛ لأنَّ خلق السماء أعجبُ من خلق الأرض.

وقال عصام الدين: إنَّ «بعد ذلك» هنا كما في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] يعني فَعَل بالأرض ما فعل بعدَ ما سمعتَ في السماء، والمراد التأخيرُ في الإخبار، فخلقُ الأرض ودَحْوها وإخراجُ مائها ومرعاها وإرساءُ الجبال عليها عندَه قبل خَلْق السماء، كما يقتضيه ظاهرُ آية «البقرة»، وظاهر آية «الدخان»(٣).

---

(١) في الأصل و(م): ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواهن سبع سماوات.
(٢) سلف ٢٤/ ١٥٤.
(٣) آية البقرة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٢٩]، وآية الدخان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وأيِّد حمل البعديَّة على ما ذكر بأنَّ حملَها على ظاهرها مع حمل الإشارة على الإشارة إلى مجموع ما تقدَّم مما سمعتَ يلزم عليه أنَّ إغطاشَ الليل وإبراز النهار كانا قبل خلقِ الأرض ودحوها، وذلك مما لا يتسنَّى على تقديرِ أنها غيرُ مخلوقةٍ أصلاً، ومما يَبْعُدُ على تقدير أنها مخلوقةٌ غيرُ عظيمةٍ.

وأيضاً قيل: لو لم تُحْمَل البعديَّة على ما ذكر، وقيل بنحو ما قال ابن عباس من تأخُّرِ الدحو عن خَلْق السماء، مع تقدُّم خَلْق الأرض من غير دحوٍ على خَلْقها = لم تَنحَسِم مادَّةُ الإشكال؛ إذ آيةُ الدخان ظاهرةٌ في أنَّ جعل الرواسي في الأرض قبل خَلْق السماء وتسويتها، وهذه الآية إلى آخرها ظاهرةٌ في أنَّ جعل الرواسي بعدُ.

وبالجملة إنَّه قد اختلف أهلُ التفسير في أنَّ خلقَ السماء مقدَّم على خلق الأرض أو مؤخَّرٌ؟ فقال ابن الطاشكبري: نقل الواحديُّ عن مقاتل أنَّ خلقَ السماء مقدَّم على خلق الأرض. واختاره جمعٌ، لكنَّهم قالوا: إنَّ خلْق ما فيها مؤخَّرٌ. وأجابوا عمَّا هنا وآيةِ البقرة بأنَّ الخلقَ فيها بمعنى التقدير، أو بمعنى الإيجاد وتقدير الإرادة، وأنَّ البعدية هاهنا لإيجاد الأرض وجميعِ ما فيها. وعمَّا هنا وآيةِ الدخان بنحوِ ذلك، فقدَّروا الإرادةَ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [فصلت: ١٠] وقالوا: يؤيِّد ما ذُكر قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فإنَّ الظاهرَ أنَّ المرادَ: ائتيا في الوجود. ولو كانت الأرضُ موجودةً سابقةً لما صحَّ هذا، فكأنه قال سبحانه: أئنكم لتكفرون بالذي أراد إيجادَ الأرض وما فيها من الرواسي والأقوات في أربعة أيام، ثم قصد إلى السماء فتعلَّقت إرادته بإيجاد السماء والأرض، فأطاعا لأمر التكوين، فأوجد سبع سماوات في يومين، وأوجد الأرضَ وما فيها في أربعة أيام.

ونكتة تقديم خلق الأرض وما فيها في الظاهر في سورة البقرة والدخان على خلق السماوات والعكس هاهنا أنَّ المقام في الأولَيْنِ مقامُ الامتنان وتعدادِ النعم على أهل الكفر والإيمان، فمقتضاه تقديمُ ما هو نعمةٌ بالنظر إلى المخاطَبين من الفريقَين، فكأنه قال سبحانه: هو الذي دبَّر أمركم قبلَ السماء، ثم خلق السماءَ. والمقام هنا مقامُ بيانِ كمالِ القدرة، فمقتضاه تقديمُ ما هو أدلُّ. انتهى.

وفي «الكشف»: أطبق أهلُ التفسير أنه تمَّ خلقُ الأرض وما فيها في أربعة أيام، ثم خَلْقُ السماء في يومين، إلا ما نَقل الواحديُّ في «البسيط» عن مقاتل أنَّ خلْقَ السماء مقدَّم على إيجاد الأرض فضلاً عن دحوها.

والكلامُ مع مَن فرَّق بين الإيجاد والدحوِ، وما قيل: إنَّ دحو الأرض متأخِّرٌ عن خلق السماء لا عن تسويتها، يَرِدُ عليه «بعد ذلك» فإنه إشارةٌ إلى السابق وهو رفعُ السَّمْك والتسوية، والجوابُ بتراخي الرتبة لا يتمُّ لِمَا نُقِل من إطباق المفسِّرين، فالوجهُ أن يجعَل «الأرْض» منصوباً بمضمَر نحو: تذكَّر وتدبَّر. أو: واذكر الأرضَ بعد ذلك. وإن جُعل مضمَراً على شريطة التفسير جُعل «بعد ذلك» إشارةً إلى المذكور سابقاً من ذكرِ خلق السماء لا خلقِ السماء نفسه؛ ليدلَّ على أنه متأخِّر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنه قاصرٌ في الدلالة عن الأول لكنه تتميمٌ[1]، كما تقول جُمَلاً ثم تقول بعد ذلك: كيت وكيت. وهذا كثيرٌ في استعمال العرب والعجم، وكأن «بعد ذلك» بهذا المعنى عكسُه إذا استعمل لتراخي الرتبة، وقد تستعمل «ثم» بهذا المعنى وكذا الفاء.

وهذا لا ينافي قولَ الحسن أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر، عليها دخانٌ ملتزقٌ بها، ثم أصعد الدخانَ وخلق منه السماوات، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرضَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الآية [الأنبياء: ٣٠][2]. فإنه يدلُّ على أنَّ كونَ السماء دخاناً سابقٌ على دحو الأرض وتسويتها، وهو كذلك، بل ظاهرُ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] يدلُّ على ذلك، وإيجادُ الجوهرة النورية والنظرُ إليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال، وذوبُها وامتيازُ لطيفها عن كثيفها، وصعودُ

---

(١) ورد في هامش الأصل ما نصه: وجوِّز أن يكون للإشعار بأنه أدخل في الإلزام لِمَا أن المنافع المنوطة بما في الأرض وتعلُّق مصالح الناس بذلك أظهر، وإحاطتهم بتفاصيل أحواله أكمل. وقيل فيما رُوي عن الحسن: إنه ليس نصًّا في تأخُّر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعادِ الدخان وخلقِ السماء بالواو والتي هي بمعزِلٍ من الدلالة على الترتيب. اهـ.

(٢) سلف ٢٤/ ١٥٤.

المادة الدخانيَّة اللطيفة، وبقاء الكثيف، هذا كلّه سابقٌ على الأيام السِّتَّة، وثبت في الخبر الصحيح، ولا ينافي الآيات(١).

وأما ما نقله الواحديُّ عن مقاتل واختاره الإمام فلا إشكالَ فيه، ويتعيَّن «ثُمَّ» في سورتي البقرة والسجدة على تراخي الرتبة، وهو أوفقُ لمشهورِ قواعد الحكماء، لكن لا يوافِقُ ما رُوي أنَّه تعالى خلق جِرم الأرض يوم الأحد ويومَ الاثنين، ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السماوات وما فيها في يوم الخميس والجمعة، وفي آخر يوم الجمعة تمَّ خلقُ آدم عليه السلام. انتهى.

والذي أميل إليه أنَّ تسويةَ السماء بما فيها سابقةٌ على تسوية الأرض بما فيها؛ لظهور أمر العليَّة في الأجرام العلويَّة، وأمرِ المعلوليَّة في الأجرام السفليَّة، ويعلم تأويل ما ينافي ذلك مما سمعتَ، وأما الخبر الأخير ففي صحته مقال، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، وقد مرَّ شيء مما يتعلَّق بهذا المقام(٢)، وإنما أعدنا الكلامَ فيه تذكيراً لذوي الأفهام، فتأمَّل والله تعالى الموفِّق لتحصيل المرام.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بأن فجَّر منها عيوناً وأجرى أنهاراً. ﴿وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ يقع على الرِّعْي بالكسر، وهو الكلأ، والرَّعْيُ بالفتح، وهو المصدر، وكذا على الموضع والزمان. وزعم بعضهم أنَّه في الأصل للموضع. ولعلَّه أراد أنه أشهر معانيه، والمناسب للمقام المعنى الأول، لكنَّه قيل: إنه خاصٌّ بما يأكله الحيوان غير الإنسان، وتُجوِّز به عن مطلقِ المأكول للإنسان وغيره. فهو مجازٌ مرسلٌ من قبيل المَرْسِن(٣).

وقال الطيبي: يجوز أن يكون استعارةً مصرّحةً، لأنَّ الكلام مع منكري الحشر بشهادة: «أأنتم أشد خلقا»، كأنه قيل: أيُّها المعاندون المَلزُوزون في قرن البهائم في التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة.

---

(١) ينظر: ٢٤/١٥٣-١٥٤.

(٢) ينظر تفسير الآية [٢٩] من سورة البقرة، والآية [١١] من سورة فصلت.

(٣) المَرْسِن: موضع الرَّسَن من أنف الفرس، ثم كثر حتى قيل: مَرْسِن الإنسان. الصحاح (رسن).

بيانٌ[١] وتفسيرٌ لـ «دحاها» وتكملةٌ له، فإنَّ السكنى لا تتأتَّى بمجرَّد البسط والتمهيد، بل لا بدَّ من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب. أو حالٌ من فاعله بإضمار «قد» أو بدونه، وكلا الوجهين مقتضٍ لتجريد الجملة عن العاطف.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ﴾ منصوبٌ بمضمر يفسِّره قولُه سبحانه: ﴿أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أي: أثبتها، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الرُّسُوَّ المنسوبَ إليها في مواضع كثيرة من التنزيل ليس من مقتضيات ذاتها، وللفلاسفة المحدَثين كلامٌ في أمر الأرض وكيفية بدئها لا مستندَ لهم فيه إلا آثارٌ أرضيةٌ يزعمون دلالتَها على ذلك، هي في أسفل الأرض عن ساحة القبول.

وقرأ عيسى برفع: «الأرض»[٢]. والحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال برفع «الأرض» و«الجبال»[٣]، وهو ـ على ما قيل ـ على الابتداء. وتعقَّبه الزجَّاج[٤] بأنَّ ذلك مرجوحٌ؛ لأنَّ العطفَ على فعليةٍ.

وأورد عليه أنَّ قوله تعالى: «بناها» بيانٌ لكيفية خَلْق السماء، وقوله سبحانه: «رفع سمكها» بيانٌ للبناء، وليس لدحو الأرض، وما بعده دخل في شيء من ذلك، فكيف يُعطَف عليه ما هو معطوفٌ على المجموع عطفَ القصَّة على القصَّة، والمعتبرُ فيه تناسبُ القصتين، وهو حاصلٌ هنا، فلا ضيرَ في الاختلاف، بل فيه نوعُ تنبيهٍ على ذلك.

وقيل: إنَّ جملةَ قوله تعالى: «والأرض» إلخ على القراءتين ليست معطوفةً على قوله سبحانه: «رفع سمكها» لأنها لا تصلح بياناً لبناء السماء، فلا بدَّ من تقدير معطوفٍ عليه، وحينئذٍ يقدَّر جملة فعلية على قراءة الجمهور، أي: فَعَل ما فَعَل في السماء. وجملةٌ اسميةٌ على قراءة الآخرين، أي: السماءُ وما يتعلَّق بها مخلوقٌ له تعالى.

وجوِّز عطفُ «الأرض» بالرفع على «السماء» من حيث المعنى، كأنه قيل:

(١) قوله: بيان، خبر لقوله: وقوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا﴾....
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، والبحر ٨/ ٤٢٣.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحتسب ٢/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، والبحر ٨/ ٤٢٣.
(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٨٠.

السماءُ أشدُّ خلقاً والأرضُ بعدَ ذلك. أي: والأرضُ بعدَ ما ذُكر من السماء أشدُّ خلقاً. فيكون وزانُ قوله تعالى: «دحاها» إلخ وزانَ قوله تعالى: «بناها» إلخ. وحينئذٍ فلا يكون «بعد ذلك» مُشعِراً بتأخُّرِ دحو الأرض عن بناءِ السماء.

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ قيل: مفعولٌ له، أي: فَعَلَ ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم؛ لأنَّ فائدةَ ما ذُكر من الدَّحْو وإخراج الماء والمرعى واصلةٌ إليهم ولأنعامهم، فإنَّ المرعى كما سمعتَ مجازٌ عمَّا يأكله الإنسان وغيره.

وقيل: مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعله المضمَر، أي: متَّعكم بذلك متاعاً. أو مصدَرٌ من غير لفظه، فإنَّ قولَه تعالى: «أخرج منها ماءها ومرعاها» في معنى: متَّع بذلك.

وأُورِد على الأول أنَّ الخطابَ لمنكري البعث، والمقصودُ هو تمتيعُ المؤمنين، فلا يلائم جعلَ تمتيع الآخرين كالغرض، فالأولى ما بعده.

وأجيب بأنَّ خطابَ المشافهة وإن كان خاصًّا بالحاضرين إلا أنَّ حكمَه عامٌّ، كما تقرَّر في الأصول، فالمآل إلى تمتيع الجنس. وأيضاً النصبُ على المصدرية بفعله المقدَّر لا يدفع المحذورَ؛ لكونه استئنافاً لبيان المقصود، ولا يخفى أنَّ كونَ المقصود هو تمتيعُ المؤمنين محلُّ بحثٍ.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ إلخ شروعٌ في بيان معادهم إثرَ بيان أحوال معاشهم بقوله عز وجل: (مَتَٰعًا) إلخ، والفاءُ للدلالة على ترتُّبِ ما بعدها على ما قبلها على ما قيل، كما يُنبئ عنه لفظُ المتاع.

و«الطَّامَّة»: أعظمُ الدواهي، لأنه من طَمَّ بمعنى: علا. كما ورد في المثل: جرى الوادي فطَمَّ على القَرِيِّ[1]. و: جاء السيلُ فطمَّ الركيَّ[2]. وعلوُّها على

(١) يضرب عند تجاوز الشرِّ حدَّه. وطمَّ: دفن، و«على» من صلة المعنى، أي: أتى على القَرِيِّ، يعنى: أهلكه بأن دفنه. مجمع الأمثال للميداني ١/١٥٩، وورد في هامش الأصل: القَرِيُّ: فعيل، مجرى الماء في الحوض، والجمع: أَقْرِية وقُريان، وهي جداول الأنهار. اهـ. والمثل عجز بيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٣/٣٥٩، وصدره:
وإنَّ لـهـم لإحـسـانـاً ولـكـنْ

(٢) في هامش الأصل: يقال: طَمَّ السيلُ الركيةَ: دفنها. اهـ.

الدواهي غلبتُها عليها. فيرجع لِمَا ذكر. قيل: فوَصْفها بـ «الكبرى» للتأكيد، ولو فسِّر كونُها طامَّةً بكونها غالبةً للخلائق لا يقدرون على دفعها لكان الوصفُ مخصِّصاً.

وقيل: كونُها طامَّةً باعتبارِ أنها تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهي الدنيا، وكونُها كبرى باعتبارِ أنها أعظمُ من جميع الدواهي مطلقاً.

وقيل غير ذلك، وأنت تعلم أنَّ «الطَّامَّة الكُبْرى» صارت كالعَلَم للقيامة، ورُوي كونها اسماً من أسمائها هنا عن ابن عباس[١]، وعنه أيضاً وعن الحسن أنَّها النفخةُ الثانية[٢].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن القاسم بن الوليد الهمداني أنها الساعةُ التي يُساق فيها أهلُ الجنة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار[٣].

وأخرجا عن عمرو بن قيس الكندي أنها ساعةَ يساق أهلُ النار إلى النار[٤]. وفي معناه قول مجاهد: هي إذا دُفِعوا إلى مالك خازنِ جهنم.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ بدلُ كلٍّ أو بعضٍ من «إذا جاءَت» على ما قيل.

وقيل: بدلٌ من «الطَّامَّة الكبرى» فيكون مرفوعَ المحلِّ، وفُتِح لإضافته إلى الفعل على رأي الكوفيين، وتكون «الطامة» حقيقة التذكُّر والبروز؛ لأنَّ حُسن العمل يغلب كلَّ لذَّةٍ وسواه كلَّ مشقَّةٍ، وكذا بروزُ الجحيم مع الابتلاء به يغلب كلَّ مشقَّةٍ، ومع النجاة عنه كلَّ لذَّةٍ. ولا يخفى تعسُّفُه.

وقيل: ظرفٌ لـ «جاءت» وعليه الطبرسي[٥]. واستُظهِر أنه منصوبٌ بـ: أعني تفسيراً لـ «الطَّامَّة الكبرى».

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٧.
(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣١٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٥٨، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٩٧. والقاسم بن الوليد هو أبو عبد الرحمن الكوفي القاضي، توفي سنة (١٤١هـ). كان ثقة. تهذيب التهذيب ٣/ ٤٢٣.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٩/ ٣٨١ (تحقيق محمد عوامة).
(٥) في مجمع البيان ٣٠/ ٣١.

و«ما» موصولةٌ و«سعى» بمعنى: عَمِل، والعائدُ مقدَّر، أي: له، والمراد: يومَ يتذكَّر كلُّ أحدٍ ما عمله من خيرٍ أو شرٍّ بأن يشاهِدَه مدوَّناً في صحيفته، وقد كان نسيه من فرط الغفلة أو طول الأمد أو شدَّة ما لقي، أو كثرته التي تُعجز الحافظَ عن الضبط، لقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦]. ويمكن أن يكون تذكُّره بوجهٍ آخر. وجوِّز أن تكون «ما» مصدرية، أي: يتذكَّر فيه سعيَه.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ عطفٌ على «جاءت»، وقيل: على «يتذكَّر». وقيل: حالٌ من «الإنسان» بتقدير «قد» أو بدونه، والموصولُ بعدُ مُغنٍ عن العائد. وكلا القولين على ما في «الإرشاد» على تقدير الجواب: يتذكر الإنسانُ. ونحوه[1]. وسيأتي إن شاء الله تعالى فلا تغفل.

ومعنى «بُرِّزت»: أُظهِرَتْ إظهاراً بيِّناً لا يخفى على أحدٍ ﴿لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ كائناً مَن كان. يُروى أنه يُكشَف عنها فتتلظَّى، فيراها كلُّ ذي بصرٍ. وخَصَّ بعضٌ «مَنْ» بالكافر. وليس بشيء.

وقرأت عائشة وزيد بن عليٍّ وعكرمة ومالك بن دينار: «وبَرَزَتْ» مبنيًّا للفاعل مخفَّفاً «لمن تَرى» بالتاء الفوقية[2]، على أنَّ فيه ضميرَ جهنم كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢]، وإسناد الرؤية لها مجازٌ، أو هو حقيقةٌ على أن يخلق الله تعالى ذلك فيها. ويجوز أن يكون خطاباً لسيِّد المخاطَبين ﷺ. أو لكلِّ راءٍ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [السجدة: ١٢] أي: لمن تراه من الكفار.

وقرأ أبو نهيك وأبو السمال وهارون عن أبي عمرو: «وبُرِزَت» مبنيًّا للمفعول مخفَّفاً[3].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ إلخ جوابُ «إذا» على أنها شرطيَّةٌ لا ظرفيَّة،

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ١٠٤-١٠٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٨، والبحر ٨/ ٤٢٣، وفي المحتسب ٢/ ٣٥١ قراءة عكرمة: «وبُرِّزت» مثل الجمهور، «لمن تَرَى» بالتاء.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، والبحر ٨/ ٤٢٣.

كما جُوِّز على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الآية [البقرة: ٣٨]، وقولِك: إذا جاءك بنو تميم فأما العاصي فأهِنْه، وأما الطائع فأكرِمْه. واختاره أبو حيان(١).

وقيل: جوابها محذوفٌ، كأنه قيل: فإذا جاءت وقع ما لا يدخُل تحتَ الوصف. وقولُه سبحانه: «فأما» إلخ تفصيلٌ لذلك المحذوف، وفي جعله جواباً غموضٌ. وهو وجه وجيه بَيْدَ أنه لا غموضَ في ذاك بعد تحقُّقِ استقامةِ أن يقال: فإذا جاءت فإنَّ الطاغيَ الجحيمُ مأواه، وغيرَه في الجنة مثواه. وزيادة «أما» لم تُفِد إلا زيادةَ المبالغة وتحقيقَ الترتُّب والثبوتِ على كلٍّ تقدير.

وقيل: هو محذوفٌ لدلالةِ ما قبلُ، والتقدير: ظهرت الأعمالُ ونُشِرت الصحفُ، أو: يتذكَّر الإنسانُ ما سعى. أو لدلالة ما بعدُ، والتقدير: انقسم الراؤُون قسمين. وليس بذاك.

أي: فأمَّا مَن عتا وتمرَّد عن الطاعة وجاوَزَ الحدَّ في العصيان حتى كفر ﴿وَءَاثَرَ﴾ أي: اختار ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ الفانيةَ التي هي على جناح الفوات، فانهَمَك فيما مُتِّع به فيها ولم يستعدَّ للحياة الآخرة الأبدية بالإيمان والطاعة ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ التي ذُكر شأنها ﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي: مأواه، على ما رآه الكوفيون من أنَّ «أل» في مثله عوضٌ عن المضاف إليه الضمير، وبها يحصل الربطُ. أو: المأوى له، على رأي البصريين من عدم كونها عوضاً ورابطاً. وهذا الحذف هنا للعلم بأنَّ الطاغي هو صاحبُ المأوى، وحسَّنه وقوعُ «المأوى» فاصلةً، وهو الذي اختاره الزمخشريُّ(٢). و«هي» إما ضميرُ فصلٍ لا محلَّ له من الإعراب، أو ضميرُ «جهنم» مبتدأٌ، والكلامُ دالٌّ على الحصر، أي: كأنه قيل: فإنَّ الجحيمَ هي مأواه أو المأوى له، لا مأوى له سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مقامه بين يدي مالك أمره يومَ الطامَّة الكبرى

---

(١) في البحر ٨/ ٤٢٣.

(٢) في الكشاف ٤/ ٢١٨.

يوم يتذكَّر الإنسان ما سعى، على أنَّ الإضافةَ مِثْلُها في: رقود حلب[١]. أو: وأمَّا مَن خاف ربَّه سبحانه، على أنَّ لفظَ «مقام» مُقحَم، والكلام معه كنايةٌ عن ذلك وإثباتٌ للخوف من الربِّ عز وجل بطريقٍ برهانيٍّ بليغٍ، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنْهُ﴾ [يوسف: ٢١] وتمامُ الكلام في ذلك قد تقدَّم في سورة الرحمن[٢].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: زَجَرها وكفَّها عن الهوى المُرْدي وهو الميل إلى الشهوات، وضَبَطَها بالصبر والتوطين على إيثار الخيرات، ولم يعتدَّ بمتاع الدنيا وزهرتها ولم يغترَّ بزخارفها وزينتها علماً بوَخامة عاقبتها.

وعن ابن عباس ومقاتل: أنه الرجل يَهمُّ بالمعصية فيذكر مقامَه للحساب بين يدي ربِّه سبحانه فيخاف فيتركها[٣].

وأصل الهوى مطلقُ الميل، وشاع في الميل إلى الشهوة، وسمِّي بذلك على ما قال الراغب[٤] لأنَّه يَهوي بصاحبه في الدنيا إلى كلِّ واهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، ولذلك مُدِح مخالِفُه. قال بعض الحكماء: إذا أردتَ الصوابَ فانظر هواك فخالِفْه. وقال الفضيل: أفضلُ الأعمال مخالَفةُ الهوى. وقال أبو عمران المِيرَتُلِّي:

فَخالِفْ هواها واعْصِها، إنَّ مَن يُطِع ... هَوَى نَفسِه تَنْزِعْ به شَرَّ مَنْزِعِ
ومَن يُطِعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَةَ تُرْدِه ... وتَرْمِ به في مَصرَعٍ أيِّ مَصْرَعِ[٥]

إلى غير ذلك، وقد قارب أن يكون قبحُ موافقة الهوى وحسنُ مخالفته

(١) سلف عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الرحمن.
(٢) ينظر تفسير الآية (٤٦) منها.
(٣) قول ابن عباس في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٥، والبحر ٨/ ٤٢٣، وقول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ٤٤٥.
(٤) في المفردات (هوي).
(٥) البيتان في البحر ٨/ ٤٢٤ وأبو عمران الميرَتُلِّي هو: موسى بن حسين القيسي، الإمام العارف زاهد الأندلس، كان له الحظ الوافر من الأدب والنظم في الزهد والتخويف، وكان ملازماً لمسجده بإشبيلية، يُقرئ ويُعلِّم وما تزوَّج، توفي سنة (٦٠٤هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٨.

ضروريَّينِ، إلَّا أنَّ السالم من الموافقة قليلٌ، قال سهل: لا يسْلَم من الهوى إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعضُ الصِّدِّيقين، فطوبى لمن سلم منه.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ له لا غيرها.

والظاهرُ أنَّ هذا التفصيل عامٌّ في أهل النار وأهل الجنة، وعن ابن عباس أنَّ الآيتين نزلتا في أبي عَزيز[١] بن عُمير وأخيه مصعب بن عمير رضي الله عنه[٢]. كان الأول طاغياً مُؤثِر الحياة الدنيا، وكان مصعب خائفاً مقامَ ربِّه ناهياً النفسَ عن الهوى، وقد وقى رسولَ الله ﷺ بنفسه يومَ أحدٍ حين تفرَّق الناسُ عنه حتى نفذت المشاقِصُ - أي: السهامُ - في جوفه، فلمَّا رآه عليه الصلاة والسلام متشحِّطاً في دمه قال: «عندَ الله تعالى أَحْتَسِبُك» وقال لأصحابه: «لقد رأيتُه وعليه بُردان ما تُعرف قيمتُهما، وإنَّ شراكَ نعله من ذهبٍ»[٣].

ولَمَّا أُسِر أخوه أبو عزيز ولم يُشَدَّ وثاقُه إكراماً له وأُخبر بذلك، قال: ما هو لي بأخٍ، شُدُّوا أسيرَكم فإنَّ أمَّه أكثرُ أهل البطحاء حُليًّا ومالاً[٤].

وفي الكشاف أنه قتل أخاه أبا عزيز يوم أحد[٥].

---

(١) في هامش الأصل: بزايين، واسمه قيل: عامر. اهـ.

(٢) الكشاف ٤/ ٢١٩، والبحر ٨/ ٤٢٤، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٠٤. وأبو عزيز اسمه: زرارة بن عمير بن هاشم بن عبد مناف العبدري. وكان صاحب راية قريش يوم بدر، وأُسرَ ثم أسلم وله صحبة ورواية. سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٦، والاستيعاب ١٢/ ٥٤، والإصابة ١١/ ٢٥٤.

(٣) الخبر ورد في الكشاف ٤/ ٤١٩ والبحر ٨/ ٤٢٤ مختصراً، وفي تفسير القرطبي ٢٢/ ٦٤، واللباب ٢٠/ ١٤٩ عن الضحاك عن ابن عباس مطولاً. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ١٨١: لم أجده.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٥.

(٥) الكشاف ٤/ ٢١٩، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ١٨١: لم أجده. اهـ. والقول بأنه قُتل يوم أحد كافراً ذكره ابن حجر في الإصابة ١١/ ٢٥٥ عن الزبير بن بكار وابن الكلبي وأبي عبيد والبلاذُري والدارقطني، وردّه أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب ١٢/ ٥٥ (بهامش الإصابة)، والسهيلي في الروض الأنف ٣/ ٦٦، وغلَّطا الزبير بن بكّار في ذلك. وقال السهيلي: لم يصح هذا عند أحد من أهل الأخبار، وقد روى عنه نُبَيْه بن وهب وغيره، ولعلَّ المقتول بأُحد كافراً أخٌ لهم غيره. اهـ.

وعن ابن عباس أيضاً أنهما نزلتا في أبي جهل وفي مصعب.

وقيل: نزلت الأولى في النضر وابنه الحارث المشهورَين باللغو في الكفر والطغيان.

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ أي: متى إرساؤها، أي: إقامتها، يريدون: متى يُقيمها الله تعالى ويُكوِّنها ويُثبتها. فالمُرْسَى مصدرٌ ميمي من: رسى[1] بمعنى ثبت، ومنه: الجبالُ الرواسي. وحاصلُ الجملة الاستفهاميةِ السؤالُ عن زمان ثبوتها ووجودِها.

وجوِّز أن يكون المرسَى بمعنى المنتهى، أي: متى منتهاها ومستقَرُّها، كما أنَّ مُرسى السفينة حيث تنتهي إليه وتستقِرُّ فيه، كذا قيل. وتقديرُ الاستفهام بمتى يقتضي أنَّ المُرسى اسمُ زمانٍ، وقولُه: كما أن.. إلخ، ظاهرٌ في أنه اسم مكان، ولذا قيل: الكلام على الاستعارة بجعل اليوم المتباعَد فيه كشخصٍ سائرٍ لا يُدرك ويوصَل إليه ما لم يستقرَّ في مكانٍ، فُجعِل وقتُ إدراكه مستقَرًّا له، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ إنكارٌ وردٌّ لسؤال المشركين عنها، أي: في أيِّ شيء أنتَ من أن تذكر لهم وقتَها وتُعلمهم به حتى يسألوك بيانَها؟ كقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] فالاستفهام للإنكار، و«فيم» خبرٌ مقدَّمٌ، و«أنت» مبتدأ مؤخَّر، و«من ذكراها» على تقديرِ مضافٍ، أي: ذكرى وقتها، متعلِّقٌ بما تعلَّق به الخبرُ.

وقيل: «فيم» إنكارٌ لسؤالهم، وما بعده استئنافُ تعليلٍ للإنكار وبيان لبطلانِ السؤال، أي: فيم هذا السؤالُ؟ ثم ابتُدِئ فقيل: أنتَ من ذكراها، أي: إرسالُك وأنتَ خاتم الأنبياء المبعوثُ في نَسَم[2] الساعة علامة من علامتها ودليلٌ يدلُّهم على العلم بوقوعها عن قريبٍ، فحَسْبُهم هذه المرتبةُ من العلم. فمعنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ على هذا الوجه: إليه تعالى يرجع منتهى عِلْمِها، أي: علمها

---

(١) تحرف في (م) إلى: سار.

(٢) نَسَم الريح: أوّلها، بفتحتين، كما في الصحاح (نسم)، وضبط في الأصل بكسر الأول.

بكُنهها وتفاصيلِ أمرها ووقتِ وقوعها، لا إلى أحدٍ غيرِه سبحانه، وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومُشارفتها وقد حصل لهم ذلك بمبعثك، فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك!

وأما على الوجه الأول فمعناه: إليه عز وجل انتهاءُ علمها ليس لأحدٍ منه شيء كائناً ما كان، فلأيِّ شيء يسألونك عنها؟ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥﴾ عليه، تقريرٌ لِمَا قبلُ من قوله سبحانه: (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ) وتحقيقٌ لِمَا هو المراد منه، وبيانٌ لوظيفته عليه الصلاة والسلام في ذلك الشأن، فإنَّ إنكار كونه ﷺ في شيء من ذكراها مما يُوهم بظاهره أن ليس له عليه الصلاة والسلام أن يذكرها بوجه من الوجوه، فأزيح ذلك ببيان أنَّ المنفيَّ عنه ﷺ ذكراها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عنها، فالمعنى: إنما أنت مُنذِر مَن يخشاها ويخاف أهوالها، وظيفتُك الامتثالُ بما أُمرتَ به من بيان اقترابها وتفصيلِ ما فيها من فنون الأهوال كما تحيط به، لا مُعْلِم بتعيين وقتها الذي لم يفوَّض إليك، فما لهم يسألونك عمَّا لم تبعث له ولم يفوَّض إليك أمره.

وعلى الوجه الثاني هو تقريرٌ لقوله تعالى: (أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ) ببيانِ أنَّ إرساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليهم السلام منذرٌ بمجيء الساعة كما ينطق به قوله ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين، إن كادت لتسبقني»(١).

والظاهر على الأول أنَّ القصر من قصر الموصوف على الصفة، والمعنى: ما أنت إلا منذرٌ لا مُعلِمٌ بالوقت مبيِّنٌ له. وإنما ذكر صلة المنذر إظهاراً لكونها ذات مدخل في القصر؛ لكون الكلام في القصر على منذرٍ خاصٍّ، ونفي إعلام خاصٍّ يقابله.

وكونُه من قصر الصفة على الموصوف بناءً على ما يتبادر إلى الفهم من كلام السكاكي(٢) أنَّ المعنى: إنما أنت منذر الخاشي دونَ مَن لا يخشى، أي: ما أنت

(١) سلف ١٤/٨.

(٢) مفتاح العلوم ص٢٩٤.

منذر إلا مَن يخشى دون غيره = غيرَ مناسب للمقام، على أنه قيل عليه: إنَّ «من يخشى» من صلة «منْذِر» ليس من متعلّق «إنما» في شيء، ليجعل الجزء الأخير المقصور عليه الإنذار. وهذا إن صحَّ استلزم عدم صحَّة ما قَرَّر، لكن في صحَّته مقال إذ يستلزم أيضاً أن لا يصحَّ: إنما هو غلام زيد لا عمرو، و: إنما هو ضاربٌ عَمْراً لا زيداً. مع شهرة استعمال ذلك من غير نكير، فتأمل.

والظاهر على الثاني أنَّ «إنما» لمجرَّد التأكيد زيادةً في الاعتناء بشأن الخبر، وليست للحصر إذ لا يتعلَّق به غرضٌ عليه بحسب الظاهر على ما قيل.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ إما تقريرٌ وتأكيدٌ لِمَا ينبئ عنه الإنذار من سرعة مجيء المنذَر به، لاسيما على الوجه الثاني، والمعنى: كأنَّهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار إلا قليلاً.

وإما ردٌّ لما أدمجوه في سؤالهم؛ فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها، وإن كان على نهج الاستهزاء بها، ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، والمعنى: كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلا عشيَّة.. إلخ.

وهذا الكلام على ما نقل عن الزمخشري(١) له أصلٌ، وهو: لم يلبثوا إلا ساعة من نهارٍ عشيتَه أو ضحاه، فوضع هذا المختصر موضعه، وإنما أفادت الإضافةُ ذلك كما في «الكشف» من حيث إنك إذا قلتَ: لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحًى، احتمل أن تكون العشيَّة من يوم والضحى من آخر، فيتوهَّم الاستمرار من ذلك الزمان إلى مثله من اليوم الآخر، أما إذا قلت: عشيته أو ضحاه، لم يحتمل ذلك ألبتة، وفي قولك: ضحى تلك العشيَّة، ما يغني عن قولك: عشية ذلك النهار أو ضحاه.

وقال الطيبي: إنه من المحتمل أن يراد بالعشيَّة أو الضحى كلُّ اليوم مجازاً، فلمَّا أضيف أفاد التأكيدَ، ونفى ذلك الاحتمال. وجَعَله من باب: رأيته بعينيَّ. وهو حسنٌ، ولكن السابق أبعد من التكلُّف، ولا منع من الجمع.

---

(١) كلامه في الكشاف ٤/ ٢١٧، ونقله عنه في البحر ٨/ ٤٢٤.

وزاد الإضافةَ حسناً كونُ الكلمة فاصلةً، واعتبر جمعٌ كونَ اللبث في الدنيا، وبعضُهم كونَه في القبور. وجُوِّز فيهما، واختار في «الإرشاد» ما قدَّمنا، وقال: إنَّ الذي يقتضيه المقامُ اعتبارُ كونه بعد الإنذار، أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار وردًّا لاستبطائهم[١].

والجملة على الوجه الأول حال من الموصول، كأنه قيل: تُنذِرهم مُشبَّهين يوم يرونها في الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة. وعلى الثاني مستأنَفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب.

هذا، ولا يخفى عليك أنَّ الوجه الثاني وإن كان حسناً في نفسه لكنه مما لا يتبادر إلى الفهم، وعليه يحسن الوقف على «فيم» ثم يستأنف «أنت من ذكراها» لئلا يلبس.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «فيم» إلخ متصلٌ بسؤالهم على أنه بدلٌ من جملة «يسألونك» إلخ، أو هو بتقدير القول، أي: يسألونك عن زمانِ قيام الساعة ويقولون لك: في أيِّ مرتبة أنت من ذكراها، أي: عِلْمها، أي: ما مَبْلَغُ عِلْمك فيها. أو: يسألونك عن ذلك قائلين لك: في أيِّ مرتبة أنت.. إلخ، والجوابُ عليه قوله تعالى: «إلى ربك منتهاها» ولا يخفى ضعفُ ذلك.

وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن عائشة قالت: ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ فانتهى عليه الصلاة والسلام، فلم يسأل بعدها[٢].

وأخرج النسائيُّ وغيرُه عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر ذكرَ الساعة حتى نزلت: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ فكفَّ عنها[٣].

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ١٠٦.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١٤، ومسند البزار (٢٢٧٩ - كشف)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٩٩، والمستدرك ٢/ ٥١٣.

(٣) السنن الكبرى (١١٥٨١)، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ٢٤/ ١٠٠.

وعلى هذا فهو تعجيبٌ من كثرة ذِكْره ﷺ لها، كأنه قيل: في أيِّ شغل واهتمامٍ أنت من ذِكْرها والسؤال عنها، والمعنى: إنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تَذْكرها وتسأل عنها.

ونَظَر فيه ابن المنيِّر بأنَّ قوله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] يردّه، إذ المراد: إنَّك لا تحتفي بالسؤال عنها ولا تهتمُّ بذلك، وهم يسألونك كما يُسأل الحفيُّ عن الشيء، أي: الكثيرُ السؤالِ عنه[(١)].

وأجيب بأنه يحتمل أنه لم يكن منه ﷺ أوَّلاً احتفاءٌ، ثم كان، وأن سؤالهم هذا ونزولَ الآية بعدَ وقوع الاحتفاء. وأنت تعلم ما في ذلك من البعد.

وقرأ أبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيصن وابن مقسم وأبو عمرو في رواية: «منذرٌ» بالتنوين والإعمال[(٢)]، وهو الأصل في مثله بعد اعتبار المشابهة، والإضافةُ للتخفيف فلا ينافي أنَّ الأصل في الأسماء عدم الإعمال والإعمالُ عارضٌ للشبه، والوصفُ عند إعماله وإضافته للتخفيف صالحٌ للحال والاستقبال، وإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس. وهو هنا ـ على ما قيل ـ للحال لمقارنة «يخشى»، ولا ينافي أنه ﷺ منذرٌ في الماضي والمستقبل حتى يقال: المناسبُ لحال الرسالة الاستمرارُ، ومثله يجوز فيه الإعمالُ وعدمه. ثم المراد بالحال حال الحكم لا حالُ التكلم، وفي ذلك كلامٌ في كتب الأصول فلا تغفل، والله تعالى أعلم.

---

(١) الانتصاف ٤/ ٢١٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥، والبحر ٨/ ٤٢٤، والنشر ٢/ ٣٩٨.